المكتبة الثقافية
١٣٠

التفكير عند الإنسان

الدكتور أحمد فائق

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة

دار القلم

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبقروشين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

رحلات الحيوان والطيور

الدكتور مريم بنى حنا

١٠ أبريل ١٩٦٥

مطابع دار القلم

الثمن ٢ مـ

المكتبة الثقافية
١٣٠

التفكير عند الإنسان

الدكتور أحمد فائق

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة

دار القلم

توزيع

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١
طنطا ميــدان الساعة
ت : ٢٥٩٤

أول إبريل ١٩٦٥

ما هو التفكير

كثيرًا ما نستعمل كلمة التفكير دون أن نعى تماما ما نقصد. ورغم ذلك لانخطىء فى استعمال تلك الكلمة أو فى فهمها . ولا شك أنه من الطريف أن نجيب عمن يسألنا . . . ما التفكير ؟ إن هذا السؤال يدعونا إلى التفكير فى التفكير .

تستعمل كلمة التفكير لتدل على أكثر من قصد . فأحيانا نستعملها لتدل على كل ما يدور فى الذهن ، فهذا يفكر فى حال الدنيا ، وذاك يفكر فى أمر عرض له منذ أيام ، وثالث يفكر فيما ينظره من بدائع الطبيعة . وأحيانا أخرى نستعمل كلمة التفكير فى حدود ضيقة ، فنقول إن الاستقراء والاستدلال — قوام العمليات العقلية فى نظر علماء النفس — هما ما يقصدان بكلمة التفكير .

ولكن مهما يختلف استعمالنا لكلمة التفكير ، فلدينا من الاتفاق فى شأنها ما يشجعنا على التعرض لتعريفها والتفكير فيها . فنحن إن قلنا إن هناك من يفكر فى حال الدنيا ، إنما

نعنى أنه يصادف فى أمور حياته ما يحيره ويحثه على فهم هذه المحيرات . وإذا قلنا إن ذلك الشخص يفكر فى سؤال لقياس ذكائه ، فنحن أمام موقف مشابه إذ أن لديه مشكلة تحتاج منه إلى الحل . أى أن التفكير ماهو إلا نشاط الإنسان . . أصله فى عدم اتزان واقعه الشخصى وفرعه فى حاجته إلى تعديل سلوكه ليعود الاتزان بينه وبين الواقع من جديد مهما تكن صورة عدم الاتزان أو ضيق نطاق السلوك .

وليس هذا بالتعريف الدقيق للتفكير . فكل نشاط يقوم به الإنسان أصله فى عدم الاتزان وغايته إعادة الاتزان . إلا أننا إذا نظرنا إلى التفكير من هذه الزاوية ، أصبح لدينا اتجاه — إن لم يكن دقيقا — فهو واضح لاستكمال تعريفنا له . فالإنسان يعيش فى واقع معين ، وله بذلك الواقع علاقات وشيجة . إلا أن تلك العلاقات تتغير وتتعدل باستمرار . فالإنسان نفسه يتغير كما أن بيئته وواقعه عرضة للاختلاف . فكما يتغير نشاط الجسم ـ إذا اختلفت أمور المآكل ـ يتغير نشاط العقل إذا جد على ما يبحثه وينشط من أجله جديد .

ماذا وراء تفكيرنا ؟

إذا نظرنا حولنا ، لوجدنا أن عالمنا ثرى بالموجودات ، غنى بالمثيرات ، ونحن فيه جزء منه . ورغم زحمة واقعنا بالأشياء المختلفة فإننا لا نكاد نشعر بها شعورا ملحاً ، بل نتعامل معها ونتصرف فيها دون انتباه كامل إليها . ولكن إذا حاول أحدنا أن يحصر الأشياء التى تملأ غرفته حيث يعيش سنين ، لأدرك بعد فترة وجيزة أن هذا العمل يحتاج منه وقتاً طويلا وجهداً لم يقدره تمام التقدير . وربما أدرك أيضاً أنه لابد مغفل بعض ما بالحجرة . ويعجب بعد ذلك أنه عاش فى تلك الحجرة عارفا كل ما بها دون وعى تام ، بل لعله ادعى لنفسه معرفة ما بالحجرات المشابهة أيضاً .

ذلك الإدراك — غير الإرادى — بما يملأ واقعنا من أشياء ، يكاد يكون من قبيل القوى السحرية إذا لم ندرسه ويصبح مادة لدراسة ممتعة منظمة إذا عرفنا أساسه . لنأخذ مثالنا السابق وسيلة لدراسة سطحية لتلك القوة السحرية التى تمكننا من آلاف العناصر والموجودات دون إرادة منا . إن أول خطوة يقوم بها الشخص فى حصره لما فى حجرته هى اختيار

نقطة البدء . فبعد أن يعبر الحجرة بعينيه ويتلمس بعض ما بها بيديه أو بحواسه الأخرى يشرع فى تصنيف ما بها ، فيسرد كل ما هو مصنوع من الخشب حتى ينتهى من ذلك ، فينتقل إلى ما هو مصنوع من النسيج ثم الورق ثم من غيرها من العناصر ، وأخيراً يجد أنه استطاع حصر كل ما بالحجرة .

تبين مما سبق أن فى أذهاننا ما يمكن تسميته بملخصات الكون .... تلك التى تجعلنا إذا قابلنا شيئا ما ندرجه تحت لفظ يشمل غيره من الأمور التى لنا بها دراية سابقة .... تلك التى تجعل آلاف الموجودات والعناصر تتحول إلى عدد صغير من الأفكار لتعطينا القدرة على استيعابها والتعامل مع الجديد منها فى ألفة .

ولكن لنا أن نتساءل ونحن على أبواب فكرة غامضة .... فكرة « ملخصات الكون » ... لنا أن نتساءل ما الذى يلخص الكون ؟

لو قارنا بين الإنسان والحيوانات الأخرى ، لوجدنا أن الإنسان يتميز بقدرته على الكلام . فالحيوانات جميعاً لا تتكلم بل تصدر عدداً محدوداً من الأصوات التى تحمل معانى محدودة لبنى جلدتها . أما الإنسان فيستطيع أن يصدر عددا لا نهائياً

من الأصوات وفى نبرات مختلفة تحمل من المعانى ما يصعب حصره. والفرق لا يكمن فقط فى عدد الأصوات وعدد معانيها.. بل فى أمر أشد خطورة . فقد لاحظ علماء الحيوان أن حيواناتهم لم توهب — ولو بشكل أولى — وسيلة للتعبير الدقيق عما تمارسه من فعل .. فصرخات الخوف أو دعوات الحب عند الحيوانات هى علامات صوتية أو حركية ثابتة تحمل معنى واحدا وعاما لغيرها من الحيوانات .. فمن ملاحظاتهم على خلايا النحل وجد أنه عندما تكتشف نحلة ما فى الخلية مصدرا للرحيق تعود إلى الخلية وتؤدى ما يسمى بالرقصة الدائرية « تدور إلى اليمين فى دائرة أفقية ثم إلى اليسار فى دائرة أفقية » أو ما يسمى بالرقصة الاهتزازية « وهى نوع من الحركات » . وبعد الانتهاء من ذلك تجد النحل يطير دون إرشاد إلى مكان الرحيق . وظن البعض أن للنحل لغة حتى قام « كارل فون فريش » بدراسة أصل تلك الرقصات .

تبين لهذا العالم أن تلك الرقصات تحدد مكان الرحيق عن طريق عدد الدوائر التى ترسمها النحلة وعن طريق ميل محورها بالنسبة إلى الشمس . وبذلك عادت لغة النحل من جديد لكى تصبح إشارات لا تزيد . ويعلق « بنفيست » على ذلك بقوله إن

لغة النحل تلك تختلف عن لغة الإنسان فى كونها لغة تعتمد على الحركة الجسمية ولذلك لا تؤدى وظيفتها إلا فى ظروف تسمح بالإدراك البصرى . . وهذا ما لا يحد لغة الإنسان . كما أن لغة النحل تفتقر إلى الحوار ، فهى بلاغ لا يفسح المجال إلى الإجابة فالنحلة التى لم تشهد الرقصات لا تستطيع الاستجابة لرسالة النحلة الراقصة ولا يمكن لنحلة أخرى أن تنقل إليها تلك الرسالة . أما الإنسان فيمكنه أن يخبر أمراً أخبره غيره إذا كلمه عنه ، بل إننا الحيوان الوحيد صاحب التاريخ . . فما خبره أجدادنا نقلته لنا أحاديثهم وما زلنا ننقلها إلى أبنائنا . ثم هناك اختلاف ثالث جوهرى فى مضمون رسالة النحل . فالنحل قادر فقط على نقل مكان الطعام . . وكل ما يجد من تغيير يكمن فى تحديد بعده واتجاهه . . وليست هناك رقصات أو حركات لغير ذلك من الأمور . فالرقصة الوحيدة لدى النحل تعنى معنى وحيدا ، أما الرمز أو الحركة لدى الإنسان فإنها تحمل أكثر من معنى . ويمكننا أن نجد فارقا رابعا فى أن لغة النحل لا يمكن تحليلها . فالرقصات تشير إشارة شاملة إلى مضمون كلى . أما لغة الإنسان فقابلة للتحليل . فمن الممكن أن نحلل مضمونها إلى أجزاء ونقابل بين كل جزء وبين العناصر التى

تتناولها . ويكفى أن ننظر إلى إمكانيات الترجمة من لغة إلى لغة .

مما سبق نجد أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يتمتع بامتيازات اللغة . إنه يستطيع أن يصدر العديد من الأصوات وينغمها ويضيف إلى بعضها أجزاء ويحذف من بعضها أجزاء فيختلف معناها . إنه يرتب تلك الأصوات بصورة مختلفة لينقل إلى بنى جلدته خبرات عديدة بكلمات قليلة . إنه يستغل اللغة فى تلخيص واقعه .. إن لغته هى « ملخصات كونه » .

لقد مكن نمو مخ الإنسان من قيامه بتأجيل وتعديل وتركيب استجاباته بحيث يملأ الفراغ ويقلل الخلط فى الاستجابات المباشرة وذلك عن طريق إدخال الرموز ، وعن طريق العلامات اللفظية حتى يضيف خبرة غيره إلى خبرته . إن الكلمات التى يستعملها الإنسان هى فى الواقع رموز تلخص له قطاعات كبيرة من واقعه . فلو أخذنا كلمة القلم ، لوجدنا أنها قد تعنى لنا قلما بذاته كما أننا قد نفهم منها مجموعة كبيرة من الأدوات — المختلفة التى تؤدى وظيفة واحدة . إن عالمنا يذخر بالأشياء التى تختلف فيما بينها ولكننا نميل إلى معاملة كل الأشياء التى بينها شبه ، باعتبارها منتمية إلى قطاع واحد .. إننا نطلق عليها كلمة تحمل معناها جميعا . فإذا أردنا التخصيص أضفنا إلى تلك

الكلمة كلمة أخرى فينعزل الشيء ليستغل بما نريد له من تخصص . فكلمة « القلم » تنقل إلينا في لحظة واحدة مئات من أنواع الأقلام . فلو أضفنا إلى ذلك كلمة الصغير تحدد لنا القلم المقصود . وكلمة « الأخضر » في ذاتها تلخص لنا العديد من درجات اللون الضارب إلى الاخضرار ، كما أن « الصغير » لا تقل عن ذلك قدرة على حصر مجال تفكيرنا .

نستطيع الآن أن نجد وراء تفكيرنا عملية تلقائية للتعامل مع الأشياء المختلفة باعتبارها شيئاً واحداً مادام بينها جوانب متشابهة . كما أن تلك العملية تتغير أيضاً تلقائياً كي تعزل الشيء عما يشابهه لتعامله معاملة خاصة تبعاً للظروف . ويتم ذلك التعميم والتخصيص عن طريق اللغة ، التي بها تكسب الأشياء صبغتها العامة ولونها الخاص . إن تفكيرنا اقتصادي مرن بالقياس إلى تفكير الحيوانات ، غني وسخي في مدنا بأساليب عديدة للتعامل مع عالمنا . . يستند على دعامة قوية هي اللغة التي تكسبه كل صفاته . إنه تفكير يرمز الأشياء فيلخصها ويجرد الخصائص فيعممها .

كيف نختلف فى تفكيرنا :

إذا جازفنا — ولو مؤقتاً — واعتبرنا أن النشاط العقلى الذى يبذله الإنسان لتكوين علاقته بواقعه هو التفكير، فيمكننا دراسة اختلافاتنا فى التفكير عن طريق دراسة علاقاتنا بالواقع. وليست مجازفتنا تلك مغامرة فى كلها، فقد لاحظنا أن الإنسان يشرع فى التفكير كلما اعترض اتزان علاقته بالواقع معترض. كما أن تفكيرنا هذا موجه إلى إعادة الاتزان إلى سابق عهده. وكلما كان تفكيرنا فى الأمر مناسباً، عاد الاتزان سريعاً وأقرب إلى التمام. لذلك ليس بالمغامرة أن نعتبر التفكير وطرقه المختلفة حبالا تصل بيننا وبين واقعنا.

وقد سبق أن وصلنا إلى أن وراء تفكيرنا عملية اختزال للواقع. فلغتنا تمكننا من أن نختصر ما يملأ عوالمنا إلى عدد قليل من الأفكار حيث يقوم الكلام بنقلها منا وانتقالها إلينا. وعلينا الآن أن نوضح بصورة أدق ماتختصره الكلمات.

ولو نظرنا إلى شىء من الأشياء التى نعرف لها اسماً، يمكننا أن نحلله إلى مايسمى « بالشكل » وما يسمى « بالمضمون ». فالمقعد مثلا له شكله الذى يتفق مع أشكال العديد من المقاعد

— حتى لو اختلفت فى بعض تفاصيلها . كما أن كلمة « المقعد » تحمل إلينا معنى يتضمن الجلوس والراحة . فلو أردنا أن نعرف كلمة « مقعد » عرفناها من حيث شكل الشيء الذى تعبر عنه ، ومن حيث مضمون هذا الشيء . وتصلح تلك الفكرة بالنسبة للأشياء المعنوية المجردة أيضاً . فالإخلاص فكرة غير مادية شكلها فى أفعال يقوم بها الكائن ومضمونها فى قيمتها الأخلاقية.

فعالمنا المادى والمعنوى فى حقيقة أمره ، ينقسم إلى شكل ومضمون . وتقوم اللغة بدور مزدوج فى ربطنا بعالمنا . فمن جانب نرى أن الكلمات تلخص لنا الموجودات الكثيرة ، وتحل محل أنواعها المختلفة . ومن جانب آخر تقوم الكلمة بدور الوسيط بين شكل ومضمون الموجودات التى تعبر عنها . فكلمة « مقعد » إنما تعنى كل المقاعد — مهما تباينت — أى أنها تحل محل تلك الأشياء التى ترتكز على أربعة أرجل أو ثلاثة والتى لها جزء يستريح عليه الظهر أو لا تتكون منه .. وهكذا فإن كلمة مقعد هنا إنما تحمل إلينا مفهوم المقاعد عموما ، كما أن كلمة « المقعد » من جانب آخر تشمل مالتلك الأشياء من شكل ومضمون . فإذا قال شخص لآخر اعطنى «مقعدا» ، فإن الآخر سيفهم من هذا أن مخاطبه يريد شيئاً ذا صفات خاصة وله استعمال معين .

ولا حاجة بنا إلى أن نزيد الكلام عن فائدة اللغة فى هذا المجال . فالكلمة هنا تفيد تركيزاً فى انتباه المستمع على « مفهوم » تندرج تحته آلاف الأشكال . كما أنها قد تحل له مشكلة إذا لم يجد بين يديه شيئا له الشكل المتعارف عليه بالنسبة للمفهوم . فإنه على الفور سيعمد إلى شيء له نفس المضمون دون التقيد بالشكل . . فربما أعطى مخاطبه — الذى طلب المقعد — صندوقا يصلح للجلوس .

يمكننا الآن أن نشير إلى ثلاثة أوجه لاختلافات التفكير عند الإنسان . أول تلك الأوجه اختلافنا من حيث قدرتنا على استخلاص « المفاهيم » — أى الكلمات والرموز التى تلخص لنا الموجودات — ومن حيث قدرتنا على استعمالها . وثانيها اختلافنا من حيث الميل إلى النظر إلى الأشياء . فهناك من يميل إلى الاهتمام بشكل الشيء وهناك من يفضل الارتباط بمضمون الشيء . وثالثهما اختلافنا فى قدرتنا على التنقل بين شكل الشيء ومضمونه لنلم بجوانبه المختلفة . فالكلمة التى تحمل لنا جانبي الشكل والمضمون قد تجعل بعضنا أكثر انتباها إلى الشكل ، حتى أنه ليعجز فى بعض الأحيان عن التخلص من أول انطباع تنقله إليه الكلمة . وإن كنا نتكلم هنا عن أوجه ثلاثة تؤدى إلى اختلافاتنا فى التفكير ، فإنما نعنى الاختلافات البسيطة التى

لا تؤدى إلى شذوذ عملية التفكير أما شذوذ عملية التفكير فنرجىء الحديث عنها حتى نتبينها بتفصيل أكبر .

(ا) اختلاف القدرة على التعامل بالمفاهيم :

إذا لاحظنا طفلا فى منتصف سنته الثانية ، لوجدناه يفكر بطريقة تمتعنا وتدهشنا فى نفس الآن . فلو أراد هذا الطفل الخروج مع أمه إلى الحديقة قال « خرج » ، وإذا رأى الخادم آتياً من الخارج ورغب فى أن يعبر عما يراه قال « خرج » . وفى كلتا الحالتين يعبر هذا الطفل بنفس الكلمة على فعلين عكسيين تجمعهما صفة واحدة هى « الغياب » . ففى الحالة الأولى تقوم كلمة خرج مقام جملة طويلة تعبر عن رغبته فى الخروج أو « الغياب » عن المنزل وفى الحالة الثانية تقوم كلمة خرج مقام جملة تفصح عن إدراكه أن الغائب قد عاد . من هذا المثال نتبين أن لغة الطفل لا تمكنه من أن يخصص لكل نوع من الغياب كلمة مناسبة .

قد يرى البعض أن عجز الطفل عن إيجاد الكلمة المناسبة هو الذى جعله يخلط بين الوضعين . . إلا أننا نتبين أن ما يشغل بال الطفل هو الغياب . وليس الحضور بعد الغياب أو الغياب

بعد الحضور . إن هذا الطفل لايستطيع من جانب أن يستخلص مفهوما نقياً للغياب ، كما أنه لا يعنيه كثيرا نوع الغياب . . ثم ينتقل نفس الطفل وهو فى طريقه إلى سنته الثالثة أو بعد أن يتجاوزها ليعبر عن غياب الأب عن المنزل بقوله « ذهب إلى العمل » لا يميز فى ذلك بين غياب فى أوقات العمل أو غياب فى دونها .

إن اللغة هنا لا تعوزه فى التعبير الصحيح فى بعض الأحيان، ولكنها لا تفيده إذا احتاج الأمر إلى زيادة دقة استعمال مفهوم الغياب . ومع التطور يصبح الشخص قادرا على استعمال كلمات دقيقة لوصف مركز للأحداث . إن التطور إنما هو تطور فى القدرة على اكتساب المفاهيم واختبارها ومن استعمال كلمات بعيدة عن التعميمات التى تغرينا بها اللغة . إننا فى نضوجنا نميز فى المفاهيم قدرتها على التعميم ، ولكننا نجد فى لغتنا أيضاً ما نعبر به عن الخصوص إذا احتاج الأمر .

إن لغتنا تميل إلى النماء بحيث تضيف إلى نفسها كلمات وعبارات تعيننا على أن نزيد من التخصيص إذا أردنا تخصيصاً ، وتفيدنا فى أن نعود بالخاص إلى بنائه العام . إن لغتنا تميل إلى الكلمات التى تفر من الاشتراك مع غيرها فى نقل معنى آخر،

ولكنها تبقينا دائماً على اتصال بالأصل . ويكفى أن نلاحظ رجلا بسيطاً فى تفكيره يسعى إلى توضيح فكرة ما حتى نجد أن ما يلقاه من صعوبة يتركز فى حاجة إلى كلمات متخصصة تنقل وجهة نظره بدقة . ولو قارنا حديث ذلك الرجل بحديث رجل على قسط من رجاحة العقل لوجدنا الأخير متمكناً من ناصية الأمر لرصيده من لغة دقيقة وصافة .

ولكن هل نصل جميعاً إلى نفس المستوى من القدرة على تجريد المفاهيم . . واستعمالها . . لو أجلنا البصر حولنا لوجدنا الناس يختلفون فى قدرتهم على تجريد المفاهيم واستعمالها وفهمها . فبيننا العلماء الذين يبحثون فى أكثر الأمور تجريداً كالطاقة والقوة والجاذبية — وهى أشياء لا نضع أيدينا عليها مباشرة . إن هؤلاء العلماء يبتكرون كل يوم طريقة لدراسة تلك المسائل النظرية بدقة وفى اختصار يصل إلى حد الغموض . وبيننا أناس لا يزالون يقدرون المسافات بين البلدان بالقروش التى يدفعونها فى القطار حتى يصلوا إليها . وبين الطرفين نجد تفاوتا فى درجات القدرة على التعامل مع المفاهيم .

لقد وجد علماء النفس علاقة وطيدة بين القدرة على تجريد المفاهيم والتعامل بها وبين ما يعرفونه بالذكاء . بل لقد اختلط

الأمر على بعضهم حتى أصبحوا يرون الإثنين كلمتين مترادفتين لمعنى واحد هو النجاح فى التعامل مع الواقع . ويعود هذا الخلط إلى تعريف العلماء للذكاء وإلى طرق قياسهم له . فالذكاء عند بعض علماء النفس هو النجاح فى القيام بعمل ما . لذلك يعمدون إلى قياسه بابتكار الأعمال المتدرجة فى الصعوبة ليروا مدى نجاح الشخص فى أدائها . ولما كان نجاح الشخص فى أداء أسئلة الذكاء سبيلا للتنبؤ بمدى نجاحه فى حياته العلمية ، ارتبط الذكاء بالقدرة على تجريد المفاهيم واستعمالها حيث أنها سبيل الشخص إلى التعرف على واقعه ومعالجته عملياً . ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا الأمر من جانبه العلمى ، ولكننا سنجهد فى تبسيطه حتى لا يلتبس علينا الذكاء والقدرة على تجريد المفاهيم .

إذا لاحظنا رجل الزراعة فى حقل يعمل ، لوجدنا أنه يباشر عمله دون الالتزام بقوانين عملية واضحة ، ويبتكر أدواته دون الرجوع إلى نظريات الهندسة — ورغم ذلك فهو ناجح كأحسن ما يكون النجاح . هذا المزارع فى واقع الأمر لا يتعامل مع المجردات فى صورها المركبة العليا — إنه يفكر بواسطة مفاهيم أكثر بساطة تناسب طبيعة عمله . ولو أتينا برجل درس الزراعة فى المعامل وأتقن فنونها فى الكتب وتعامل مع المفاهيم المجردة

التى درسها فى الجامعة — لو أتينا به ليزرع ربما عجز عن أن يلحق بزميله الذى ولد بالحقول . فهو أميل إلى تناول الأمور بدقة العالم فى الوقت الذى تحل فيه تلك المشاكل عن طريق مباشر بسيط يعلمه الفلاح بالخبرة . إن بعض ميادين النشاط تتطلب مستوى عالياً من القدرة على التجريد حتى ينجح الشخص ، بينما فى بعضها الآخر تعوقه القدرة على التجريد عن الوصول إلى النجاح فيه .

لذلك يفضل أن ننظر إلى التفكير باعتباره الأسلوب الملائم للتعامل مع واقع معين ، بينما الذكاء هو نتاج أساليب التفكير المختلفة فى نشاطها فى هذا الواقع . ولا أدل على هذا مما أثبتته البحوث من عدم اختلاف ذكاء سكان الغابات الذين يعيشون بطرق بدائية عن سكان المدن الذين تتعقد وسائل العيش فى بيئتهم . فبعض البيئات وبعض الثقافات تشجع الأفراد على أساليب معينة للعيش . فلنتصور رجلا بدائياً قضى حياته فى الغابة وأتقن فنون العيش فيها — لنتصوره فى حجرة وثيرة الفراش معدة على أحدث طراز .. ماذا سيكون سلوكه ؟ إنه سيترك الفراش لينام على البساط لأنه أشبه بجلد الحيوان الذى اعتاد النوم عليه . بل سنراه يشرب من إناء الزهر — ولا يقرب الصنبور الذى لم يعرف له مثيلا فى غابته . إن هذا البدائى لا يقل

عن ابن المدينة فى قدرته على تجريد المفاهيم . فالبساط وجلد الحيوان على شبه بعضهما فجمعهما فى مفهوم واستعمله استعمالا سليما . إن ما يفرق بينه و بين المدنى هو خبرته بالجديد . . .

لقد عودتنا ثقافتنا وحضارتنا على التعامل مع الرموز بصورة أوضح . فيكفينا أن نقرأ عن أبعاد صاروخ هائل يعبر الفضاء حتى نتصوره . أما رجل الصحراء الذى لا يعرف القراءة فلا يكفيه أن يرى صورة هذا الصاروخ حتى يدركه ويتصوره . . إنه لم يخبر الصور وما تعنيه من تصغير للأشياء ، فأنا له أن يدرك الأبعاد التى تجرد واقع الصاروخ فتجعله مجموعة من الأرقام.

لذلك يمكن القول بأننا قد نختلف فى نوع المفاهيم والمجردات التى نتعامل بها مع بيئتنا دون أن نختلف فى قدرتنا على التفكير السليم . فمنا من طبعته بيئته بطابع التجريد المفرط ، ومنا من اضطرته بيئته إلى التعامل بالمفاهيم المادية الملموسة .. وكلا النوعين من الناس ناجح فى حياته لا يقل عن الآخر ذكاء ... أما إذا كانت طبيعة ثقافتنا وظروف معيشتنا تحتاج منا إلى نوع معين من التفكير ولا يفيد معها إلا هذا النوع — إذا كان الأمر كذلك ووجدنا بعضنا غير مستطيع للتجاوب مع متطلباته — فهنا نتكلم عن اختلافات التفكير .

من تلك الفكرة نرسم الإطار العام الذى نختلف فى تفكيرنا فيه . فثقافتنا المدنية — وحتى الريفية بعد انتشار التعليم — تطلب منا أن نترك الماديات والملموسات جانبا لنتعامل مع ما وراء الأشياء من أفكار . وقد أصبح من تراث تفكيرنا أن نقرأ ونكتب ونرمز إلى الأشياء دون عرضها عرضا ماديا . فيكفى أن نضع أمام أطفالنا كتابا مصورا يعرض حياة الحيوانات حتى يصبحوا على دراسية بعالم الحيوان . كما أننا نحن البالغين نثور ونرضى.. نحارب ونسالم لمجرد أن ديمقراطيتنا قد مست . ولا تعدوا أن تكون الديمقراطية كلمة نقرأها فى الصحف . فلو وجدنا من بيننا من لا يعرف معنى الديمقراطية — بصرف النظر عن اهتمامه بها أو فهمه لأصولها — وإذا وجدنا من بيننا طفلا لا يفهم أن صورة الحصان تطابق الحصان الذى يراه فى الطريق. فهنا يبدأ الحديث عن اختلافات التفكير . أما إذا دققنا فى أحوال التفكير عند الأسوياء دون المرضى ، فإننا لا بد واجدين نوعا من التعامل مع المجردات والمفاهيم مع اختلاف قدره ...

(ب) اختلاف تفكيرنا من حيث الاهتمام بالشكل وبالمضمون :

يحكى فى القصص الدينى أن امرأة فرعون أرادت أن تبرهن

لزوجها الخائف من الطفل « موسى » أن هذا الطفل غر لا يفرق بين الصالح والضار . فأتت بالطفل وقدمت إليه بلحا أحمر وجمراً متقدا . ومد الطفل يده إلى جمر ووضعه فى فمه فأحرقه . وهنا رضى فرعون عن رغبة زوجته فى تربية هذا الطفل ، الذى تنبأ له العرافون بانتهاء حكمه على يديه .

فى هذه القصة نجد أن موسى أدرك ما أمامه على أنه شىء أحمر ، ولم يفرق بين ما يؤكل .وما لا يؤكل . لقد أخذته حمرة الحجر ولما كان عديم الخبرة بما يفرق البلح الأحمر عن الجمر الأحمر لم يجد مانعا فى ابتلاع النار . لقد تعامل الطفل هنا مع سكل الشىء لعجزه عن إدراك مضمونه .

ولكن هل يسلك البالغ نفس المسلك فى كبره . . ربما لن نجد من بيننا من يقوم بابتلاع الجمر ، ولكننا نجد أناسا يؤخذون بشكل الاشياء دون مضمونها . كما أننا نجد أناساً يتركون شكل الأشياء جانبا ويهتمون بضمونها . ويصعب علينا أن نمثل لكل نوع بمثال لأننا جميعاً ما دمنا ناجحين سليمى العقل فلابد وأن نتعامل مع شكل ومضمون الأسياء رغم ميل بعضنا إلى أحدهما بصورة أكثر وضوحا .

ولكن إذا تجاوزنا هذه الحقيقة قليلا فسنتبين اختلافا فى سلوكنا مع الأشياء . فبعض الناس لايستسيغون الشعر الرمزى أو الفن التجريدى لأن الشكل الفنى لهذا الإنتاج بعيد إلى حد كبير عن أى مضمون يفهمونه . وبعض الناس يفضلون الاتجاهات السيريالية فى الفن لما تحتاجه من تجاوز لشكلها وتفهم مضمونات جديدة يميلون إليها .

ولا يقتصر الفارق بين النوعين على هذا المثال المتعالى عن واقع حياتنا العادية .. فمنا من يرى قيمة العطاء فى قدره ، وبعضنا يرى العطاء شعورا إنسانيا لا يقيم بمادته . وهناك أناس أميل إلى تفهم العالم من وجهة النظر العلمية ، بينما أناس آخرون يجدون فى المثل فيما تتجاوز الواقع المادى الملموس . وليس الاختلاف بين النوعين اختلافا فى أفضلية نوع على آخر ، ولكنه اختلاف فى أسلوب التعامل مع البيئة . فالشخص الذى يهتم بشكل الشيء ذو علاقة عملية سطحية مباشرة بالواقع . أما الشخص الذى لا يغير الشكل الاهتمام الذى يصرفه تجاه المضمون فهو نظرى أكثر عمقا يرتبط بواقعة من خلال المجردات والمعنويات . وكلا النوعين على صلة سليمة بالواقع ، يتوافق مع بيئته رغم اختلاف الأسلوب .

لقد استغل علماء النفس فكرة بسيطة للتفريق بين هذين النمطين من المفكرين . وتنحصر الفكرة فى عرض عدد من الأشياء غير ذات الصلة بعضها على الأشخاص . ثم يطلب منهم أن يصنفوا تلك الأشياء حسب مبدأ معين ليروا ما المبدأ الذى يفضله كل منهم . وقد وجدوا أن بعض الأشخاص يصنفون الأشياء حسب تشابهها فى شكلها أو حجمها أو لونها بينما البعض الآخر يصنفونها حسب فائدتها أو استعمالها . فمن الأشخاص من يضع الكتاب مع الصندوق مع علبة الكبريت لأنها جميعا مكعبة ويضع السيجارة والقلم وخرطوم الماء معا لأنها مستطيلة ومستديرة القطر ويضع الغليون مع المسطرة لارتباطهما فى المادة الخشبية التى صنعت منها ويجعل من الطباشير والورق الأبيض مجموعة حسب اللون ويعتبر إطار السيارة وقطعة الفحم متشابهتين ما دام لونهما أسود . ومن الأشخاص الذى يضع القلم والطباشير معا لأننا نكتب بهما ويضع الخرطوم وإطار السيارة معا لأنهما من المطاط .. وهكذا . إن مثل هذه التجارب تكشف لنا عن أسلوب إدراك واستخلاص الشخص للمفاهيم .. وميله إلى إدراك الأشياء من حيث شكلها أو مضمونها ، من حيث استعمالها أو مكوناتها .. وكى نوضح ذلك نعود إلى مثالنا الخاص

بالحجرة وما تحتويه . لنفرض أننى بدأت بمضمون الأشياء التى بها . إن أول ما سأقوم به هو وصف كل شىء فى الحجرة فأجد صوانا للكتب ، ثم صوانا أضع به بعض التحف الصغيرة ثم أجد صورة زيتيه وأخرى فوتوغرافية وهكذا أجد الحجرة مشتمله على ٤٠ شيئا كل منها يحمل مضونا مختلفا ، أو ربما حمل عدد قليل منها نفس المضمون كالكراسى الأربعة التى بها . الواقع أننى لو لم أتخلى عن التصنيف حسب المضمون فإن تصنيفى سيظل ناقصا ومعقدا وغير دقيق . ثم لنفرض أننى بدأت بشكل الأشياء دون مضمونها . فى هذه الحالة سأجدنى أضع كل ماهو صغير الحجم معا كالتحف وزجاجة المياه الغازية التى أشربها وعلبة التبغ التى أدخنها معا ، وأضع ذوات الحجم المتوسط كالكتب ولمبة المكتب والخف الذى ألبسه معا ، وهكذا . وهنا أيضا يبقى تصنيفنا غريبا ومعقدا وغير سليم . ماذا إذن الحل ؟ الواقع أننى لو تركت أى الطريقتين تتقدم لوجدت نفسى إذا بدأت بالمضمون أو بالشكل سأصل فى النهاية إلى تصنيف يضمهما معا فى إطار منسجم . فبعد فترة سأكتشف فكرة الاستعمال لتلك الأشياء « مضمون » لأضع أحجاما مختلفة مع أشكال مختلفة فى وحدة واحدة . أو أكتشف فكرة الوزن

الخاص بالأشياء «شكل» لأضع أحجاما مختلفة تختلف فى استعمالها لأصل إلى تلخيص آخر لما تحتويه الحجرة . ثم أقوم باختصار آخر أكثر براعية حيث أصنف الأشياء حسب المواد التى صنعت منها فأجعل كل ما هو خشبي معا وكل ما هو نسيج معا وكل ما هو زجاجى معا بحسب العناصر فأجدنى بإزاء أشياء تتفق فى كثير من حيث وزنها واستعمالها وحجمها . . ويصبح مبدأ المادة دقيقا ومسببا لعملية التصنيف ويختصر لى الأشياء التى بالحجرة إلى حد كبير ، ويمنع عنها اللبس والخلط والقابلية للأمتزاج . من هنا نجد أن المفاهيم التى نخلقها تضم الشكل والمضمون بقدر براعتنا فى التأدى من أحدهما إلى الآخر . فإذا قدر لنا أن نكون بارعين استطعنا أن نصل إلى علاقة أبسط وأدق وأسلم بواقعنا .

لقد أوضحنا من قبل أن الإنسان إنما يفكر بالمفاهيم ، وأن المفاهيم تنبنى على الشكل والمضمون معاً لا على أحدهما وإلا ما استقامت علاقتنا بواقعنا . فلما تكلمنا على ميل البعض إلى الشكل دون المضمون أو العكس نبهنا إلى أن التفكير لا يتم على أساس هذا الميل نقيا. بل إن الإنسان العاقل الذى لا يشوب

تفكيره مرض لابد وأن يتعامل مع كل من الشكل والمضمون معا مهما كان تفضيله أو ميله . فالشكل وحده يضللنا ، كما أن المضمون وحده لا يوضح لنا الأمور .. لذلك نرى أن من يبدأ بمفهوم أساسه الشكل سيصل إلى المضمون ، كما أن المفاهيم القائمة على المضمون لا تقود التفكير حتى تعود إلى شكل الواقع فتختبره .

من هذا العرض المبسط يمكننا تقدير ما يفيده الإنسان من تخلصه من سيطرة الواقع الملموس للأشياء وتقدمه نحو فهم كنه الأمور . هذا التطور هو تطور إلى مفاهيم أكثر عمقا وشمولا ودقة .. مفاهيم تنبع من إدراك واضح للأشكال المختلفة التى يظهر بها واقعنا وتنتهى إلى تلخيص دقيق لهذا الواقع . ولا شك أن الوصول إلى هذا التلخيص الدقيق الشامل يحتاج من وقت إلى آخر لمراجعة وإعادة تقييمه . تلك هى الخطوة التى نقوم بها دون وعى منا ، يقوم بها العالم فى معمله حسب خطط متفق عليها .. إننا دائما التذبذب بين أشكال واقعنا ومضامينه . فمن الشكل ندرك المضمون ومن المضمون نعود إلى الشكل كى نعرف حدود ما وصلنا إليه من فهم له .

(ج) اختلاف القدرة على سهولة التنقل بين شكل ومضمون واقعنا :
« الليونة والجمود فى التفكير »

فيما سبق تعرضنا لاختلافات الأفـراد من حيث ميلهم إلى التعامل مع شكل بيئتهم أو مثيراتها ومع مضمون تلك البيئة أو تلك المثيرات . وقلنا إن الإنسان السوى التفكير لا يستغنى فى تفكيره ، بل يمتنع عليه حسن التصرف إذا تعامل مع وجه واحد من أوجه واقعة . ووصلنا إلى أن الأمر لا يعدوا أن يكون تغليبا للشكل على المضمون أو العكس — أو أن يكون تفضيلا لتناول الأمور فى بداياتها من حيث شكلها أو مضمونها . ثم أوضحنا أن تفكيرنا — إذا سلم من المرض يتذبذب باستمرار بين شكل الشيء ومضمونه حتى يصحح نفسه ويلم بالأمر من جانبيه معاً . تلك النقطة الأخيرة تعدسبباً ثالثاً من أسباب اختلافنا فى التفكير. فمنا من يجد صعوبة فى هذا التذبذب فيأخذ تفكيره طابعا خاصا يتسم بالجمود ، ومنا من يسهل عليه الأمر فنراه أكثر ليونة فى أفكاره يعدل فيها بما يتفق مع تغير الأحداث .

وكى نضرب مثالا — يتسم بالطرافة كما يتصف بعدم قصد كاتبه — على جمود السلوك وتحيزه لشكل الأمور دون مضمونها

نقتبس من إبراهيم المازنى وصفاً لامرأة فى كتابه إبراهيم الكاتب ، يقول المازنى « ... ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام ، فأصح الناس من يلتهمه التهاما ويأتى على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غدا . بل قيمة المرء رهن بذلك ، فأحق الناس بالإكبار الأكول البطين. أمامن يأكل بقدر أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جلله الشيب وقوست قناته السنون والحادثات » .

إن سخرية الكاتب فى هذا المثال تنبع من تضخيمه لجمود تفكير المرأة . فجمود التفكير يؤدى إلى أحكام وتصرفات تثير السخرية والضحك كلما زادت ولم تعد تجارى المواقف بعد تغيرها .

والواقع أننا نتنوع ونتفاوت فى جمود تفكيرنا . ولنحاول أن نتصور موقفاً يتعرض له عدد من الناس ثم نتابع ما يطرأ على أحكامهم . مجموعة من الأفراد يشاهدون رجلا قوى البنيان يعتدى على آخر هزيل ضعيف . فى البداية سيشعر الجميع بالعطف على الضعيف وبظلم القوى . ثم يسمعون من يقول بأن المعتدى عليه قد حاول سرقة المعتدى فإذا بعضهم يغير من رأيه ويفقد عطفه على الضعيف ويظل الباقون عند رأيهم . ثم يعلمون

أن المعتدى عليه لص معتاد ، وشيئاً فشيئاً يجدون أن هذا المزيل قد قام بشرور كثيرة أضرت بالناس . ومع تطور الموقف يغير الناس من حكمهم شيئاً فشيئاً كذلك ، ورغم ذلك يبقى البعض مصراً على أن اعتداء القوى على الضعيف شيء لا يستحب مهما كانت الدوافع .

هذا الموقف الافتراضى يبين لنا أن هناك أناس يتمسكون بفكرة ثابتة مهما طرأ من تغير على المجال ، بينما نجد آخرين يغيرون من تفكيرهم كلما جد على المجال جديد . بعبارة ثانية ، عندما يواجه الناس موقفاً فإنهم يحكمون على شكله أولا لأنه الأمر الوحيد الظاهر . ومع خبرتهم المتجددة بالموقف ووضوح مضمونه يتحولون فى أحكامهم حسب ما يجد . ولكننا لا نعدم أن نجد من يجمد منه التفكير على حكمه الأول ولا يستطيع أن يقدر الجديد الذى طرأ على الأمر تقديرا مختلفاً .

وقام علماء النفس بتجربة بسيطة لقياس جمود التفكير . فقد عرضوا على شاشة سينما شكل قط . . ثم أخذوا يغيرون بعض تفاصيله بالتدريج حتى تحولت صورة القط إلى صورة كلب على خطوات متدرجة. قاموا بتلك العملية وعرضوها على مجموعات من الأفراد وطلبوا منهم أن يشيروا إلى الصورة التى يختفى فيها

شكل القط ويبدأ ظهور الكلب . فتبينوا أن هناك أناساً غيروا من فكرهم بعد ظهور تحولات بسيطة على صورة القط ، بينما ظل عدد منهم متمسكا بصورة القط إلى مرحلة متأخرة حتى أمكنهم إدراك ظهور صورة الكلب .

ولا شك أن سهولة التحول عن مفهوم إلى آخر ، وسهولة الانتقال من شكل الشيء إلى مضمونه وبالعكس أمر يفيد الإنسان فى تعامله مع البيئة . فالبيئة متغيرة وتحتاج منا أن نجاريها فى تغيرها . كما أن سهولة التردد بين شكل الشيء ومضمونه تزيد من إدراكنا لكثير من التفاصيل وتعمق فهمنا لقيمة الشيء فى نفس الوقت . ورغم أننا قد نجد أن هناك من يتميز بجمود التفكير مع احتفاظه بمستوى عال من القدرة على التعامل مع البيئة — إلا أننا نميل إلى اعتبار الأمر مسألة نسبية . فجمود التفكير أو ليونته أمر يتوقف على طبيعة البيئة ومتطلباتها . فبعض الظروف يضللنا فى الحكم عليها سهولة تحول تفكيرنا فيها . بينما بعض الظروف الأخرى تفيدها هذه السهولة وتلك الليونة فى الأفكار .

الوجدان والتفكير

لم نتعرض حتى هذه اللحظة إلى تناول جانب الانفعال والوجدان فى التفكير ، رغم أنه أكثر ما يلفت النظر . وقد جاء تأجيل التعرض لذلك الجانب فى مصلحتنا ، لأنه سيعرض لنا خاصية عامة فى التفكير الإنسانى السوى ربما أوضحت لنا بصورة أضخم الفرق بين السواء والمرض فى نطاق أعم . بل إن التعرض لذلك الجانب يفيدنا فى تمييز أنواع من المرض النفسى تختلف فيما بينها بصورة لا تقل وضوحا عن اختلاف المريض عن السليم . ومن جانب ثالث يفيدنا التعرض لهذا الجانب إلى أن ندلف إلى عالم المرض العقلى واضطراب التفكير فيه .

لقد تكلمنا عن إنشاء المفاهيم والتعامل مع شكل الأمور ومضمونها والميل إلى الشكل أو المضمون فى التعامل ثم القابلية للانتقال من الشكل إلى المضمون فى حركة مستمرة تؤدى إلى تعامل أوفق مع العالم المادى الذى نعيش فيه . ولكن ما هو المفهوم ، ذلك الطلسم الذى يفتح للإنسان سر عالمه والذى ينشأ

لديه وينمو دون أن يدرى إلا بنتائجه ؟ . لننظر إلى ذلك المقعد الذى بحجرتنا والذى ألفنا الجلوس عليه ساعات من النهار نقلب فى شئون حياتنا ونمارس فى جلستنا عليه ضروبا من الاستجمام والقلق ، التفكير والتأمل ، الاسترخاء والتوتر . لننظر إلى شكل هذا المقعد متأملين فيه . إن له شكلا وله مضمونا ولكننا نميز بين شكله ومضمونه فى علاقتنا به . بل ربما إذا سألنا البعض ماذا فى هذا المقعد يجعلك تقدره ذلك التقدير ، ربما ما استطعنا الإجابة : أشكله أم . . مضمونه ؟ . إن شكله لا يختلف كثيراً عن غيره من المقاعد ، بل هناك عدد من المقاعد المشابهة له تماما فى نفس الحجرة . مضمونه إذن . . حتى مضمونه لا يختلف عن غيره من المقاعد فكلها صالح للجلوس ويقوم بنفس الوظيفة . إذن ماذا فى ذلك المقعد بالذات ؟ الحقيقة أن ذلك المقعد له لدينا قيمة تعلو على شكله ومضمونه ، قيمة تمزج الشكل بالمضمون فى وحدة قوية وتربطنا به رباطا وجدانيا خاصاً يجعل له تلك المكانة بنفوسنا . إنه أشبه بتلك الزهرة المحنطة فى كتاب محب أهدته إياها حبيبته ذات يوم منذ عشر سنوات . إنه ليس بمقعد . إنه رمز وذكرى ، هو جزء منا وقطعة من كياننا ، بعبارة أخرى إن لنا به علاقة حب .

والوقع أننا فى تكوين علاقتنا بما حولنا ، وفى خلال عملية إنشاء المفاهيم التى نتعامل بها مع تلك الموجودات ، لا بد وأن نضفى عليها جانباً غير عقلى نسميه بالجانب الوجدانى . ويكفى أن نعود إلى نفس المثال لنجد هناك مقاعد نكرهها وأخرى لا تتميز بصفة خاصة حتى ندرك أن لنا بما حولنا وشائج من حب وكره وما بينهما . نحن إذن نفكر و ننفعل أيضاً ، ويؤدى انفعالنا إلى مزج وتلوين التفكير بصبغته الشخصية الخاصة بنا .

من هذا نجد أن تفكيرنا ليس قاصراً على التعامل العقلى والذهنى مع العالم ، بل نحن نرتبط بهذا العالم عقلياً ووجدانياً معاً . والتعرض لمشكلة الوجدان وعلاقته بالتفكير يضعنا أمام مشكلة كثر النقاش حولها . هل الشخص الوجدانى العاطفى أكثر خطأً فى تفكيره من آخر ينظر للأمور نظرة باردة ذهنية مجردة ؟ بعبارة ثانية ، هل إذا تدخل الوجدان فى تفكيرنا وغزت الانفعالات نشاطنا العقلى مرض منا التفكير ؟ هذه المشكلة نواجهها فى أمور معايشنا وظروف حياتنا باستمرار . وقد صاغها علماء النفس بصورة أدق فأصبحت : هل يمكن أن نجعل العلاقة بين سلامة التفكير ومرضه علاقة طردية مع قدر الوجدان الناشط فى إدراكنا لعالمنا ؟

فى الحقيقة أن هذا الرأى على بساطته وواقعيته ليس صحيحاً. وربما يعود الخطأ فى ذلك الرأى إلى عدم ملاحظتنا الدقيقة للموقف . حقاً إن المريض العقلى يتميز بانحراف المزاج وغرابة الانفعال وشذوذ الوجدان ، ولكن ذلك ليس كل الأمر . فالانحراف والغرابة والشذوذ تدل على أن خللا قد أصاب التفكير ، ومعنى ذلك أن اعتدال المزاج وألفة الانفصال وسواء الوجدان تدل على صحة التفكير . إن غياب الوجدان ليس شرطاً لسلامة التفكير . بل وجود الوجدان فى صورته المغربة هو ما نقصد بفاعليته فى مرض التفكير ؟

لذلك يمكننا أن نقترب من حل هذه المشكلة فنقول إن اضطراب التفكير ليس على علاقة طردية بشدة تدخل الوجدان فى عملياته . بل تدل الدراسات على أن مرض التفكير هو المسئول عن اندفاع وجدانات غريبة ومشاعر غير مألوفة إلى علاقة الشخص بواقعه . بعبارة ثانية ليس الانفعال هو المسئول عن فساد التفكير ، لأن الانفعالات السوية تزيد التفكير استقامة ولكن فساد التفكير هو الذى يسمح لانفعالات غريبة وشاذة بأن تندفع متلونة بلونها الشاذ والواقع أن شرح هذه النقطة يصعب إلى حد كبير ، لذلك سنكتفى بالتساؤل : من أين لنا

بانفعالات ووجدانات شاذة ؟ وكيف يتسنى للتفكير السوى أن يمنح تلك الوجدانات المنحرفة من الظهور ؟ وكيف ينبع التفكير السوى لدى الإنسان ؟

تطوّر تفكيرنا :

لا يولد الوليد مزوداً بقدرة على التفكير تنفتح حسب قانون فسيولوجي أو بيولوجي محتم ، ولا توجد وجدانات طبيعية تنتظر ميقاتا لتندمج مع التفكير فتجعله سويا رحباً منطلقاً . إن تطور الإنسان يدل على أنه يخضع لعمليات تهذيب وصقل كثيرة تغير فيه ليأخذ طابعه الإنسانى . والدليل على ذلك أن الإنسان عندما يصاب بعلة نفسية يرتد إلى مراحل من النمو مبكرة تصبغ تفكيره بطابع تلك المراحل ، فيبدو وكأنه يعرض لنا ما مر بنا قديماً وخضع للتهذيب والصقل على مر الأيام .

لنستعرض فى لمحة سريعة ما مر بنا فى طفولتنا من مشاكل وما توصلنا إليه من حلول لتلك المشاكل ، لعلنا نهتدى إلى تلك الصلة الوثيقة بين سواء التفكير وبين الوجدان .

تفكير الطفل فى سنته الأولى :

لو نظرنا إلى وليد جديد لوجدناه نائماً أغلب وقته لا يفيق

إلا إذا أزعجته حاجة . وأكثر تلك الحاجات أهمية بالنسبة إليه هى حاجته إلى الطعام . ففى فترات إطعامه ومن خلال فمه نجد هذا الوليد وقد أفاق من نومه وتخلص من عزلته ليتصل بعالمه . عالم ضيق ينحصر فى ثدى أمه وذراعيها . فعندما تنشط لديه دفعات الجوع تطلب الشبع ، تكون منطقة الفم منطقة متوترة حساسة . وشيئاً فشيئا ، ومع نماء قدرته على الإحساس بما حوله يرتبط هذا الجسم المستدير الذى يأتيه بالراحة ، يرتبط بإحساس بالشبع والرضى . ولكنه أحياناً ما يطلبه نبعاً لا ينضب ، فيجده ليس طوع رغبته التى لا تعرف التأجيل .

وأنى لتلك الرغبة الوحيدة أن تعرف التأجيل وهى حيوية لهذا الكائن الضعيف العاجز عن التصرف . وتمتلىء نفس ذلك الوليد بالألم والخوف والغيظ دون تعقل ولا اعتدال . فإذا ما أمسك بثدى أمه ، نازعته نفسه إلى التهامه حتى يبقى عليه دائماً فى فمه فيأمن شر تأخر إرضاعه .

فى تلك اللحظات يحتك الوليد بيشائر قواعد الواقع . . ألا وهو التهديد بالحرمان . . فمحاولات الطفل أن يبتلع الثدى لا تجديه نفعاً . . فابتلاعه يعنى فى ذهنه اختفاء يدوم وتدميراً يشمل مصدر راحته . كما أن استحالة الأمر فعلا تجعله فى حاجة

إلى تعديل رغبته تلك . ففى تلك الشهور الأولى من العمر لا يدرك الطفل تناقضه إزاء مصدر إشباعه : يريده ليبقى دائماً ، وإذا ابتلعه اختفى تماماً . ولما كانت كل من الرغبتين .. تفصلهما فترة زمنية أو تعزلهما حالتين وجدانيتين لا يعيهما عقل الطفل فى آن واحد ، نجد أن حل هذا الإشكال يأتى بالتنازل عن واحدة من الرغبتين ، أو بالإبقاء على ثقته فى مصدر الإشباع أو سحب ثقته من عالمه .

ويتدخل أكثر من عامل ليحدد للطفل أى الرغبتين يبقى وأيهما يرفض . ومن تلك العوامل ما يصاحب الرضاعة من إشباع لغيرها من الرغبات. فإحساس الألم عند الجوع . والراحة عند الشبع يجعل الطفل يربط سريعاً بين الرضاعة والمحبة . وليس بالغريب علينا أن نجد الرضيع بعد شبعه يميل إلى اللعب بثدى أمه ، تلاطفه ويبتسم لها ويشعر بدفء الحياة حوله . ويقف الواقع أمامه أيضاً فى تلك اللحظات حتى يعكر عليه صفو لذة اللعب والحب والشبع . فلكل أمر نهايته بالنسبة لنا ، أما بالنسبة للرضيع فإن عقله لا يقبل إلا ما يرضيه . ويدرك الطفل أن وراء الثدى أما ، تبعد فتختفى وتقترب فتظهر ويعرف غير اللبن طعاما له . ويدفعه الاكتشاف إلى التنازل والفصل بين

رغبته فى الشبع ورغبته فى الحب . فعليه والأمر كذلك أن يتحمل مشاق ألم الجوع فترة حتى يحصل على المحبة . وهنا نستطيع أن نلمح معالم المشكلة التى يمر بها الطفل . فإذا كان الإشباع مصحوبا بالحب ، فضل الطفل تحمل مشاق الجوع حتى لا يغضب أمه فيفتقد حبها إذا أطعمته . أما إذا كان الأمر إطعاما لا تصاحبه مشاعر الحنان والحب لم يجد الطفل فى رغبته التأجيل جدوى وفضل تخفيف آلام الجوع وحده لأنه الوحيد .

إن هذا الموقف الذى يخبره الطفل إزاء مشكلتى الإشباع والحب هو موقف يبين لنا التناقض الأول فى حياته . فرغبته فى الإشباع السريع قد تؤدى به إلى الحرمان ، ورغبته فى الحب قد تؤدى به إلى فقدان الحب . ولا يجد الطفل أمام هذا الموقف حلا إلا الخضوع لمبادىء الواقع فيلقى بأحد الرغبتين بعيدا ويبقى على الأخرى قريبة من ذاته لينهى هذا التناقض الذى يمزق نفسه الصغيرة . ولكن أين تذهب تلك الرغبة التى أنكرها فى نفسه وأبعدها عنه ؟ إنها جزء من ذاته وأمر لا يتخلص منه بمجرد إنكاره . إنها ذاته . أو بعض منها — تنكر لها لتعارضها مع منطق الواقع الذى اكتسبه . لذلك يبنى الطفل — حول رغبته تلك سوراً من النسيان — وكأنها لم تكن منه وفيه يوما —

فيبعد بينها و بين الظهور فى وعيه ليتعامل مع واقعه برغبة واحدة مقبولة من المجتمع . و بمعنى آخر أنه يكبت تلك الرغبة فيجعلها بعيدة عن الشعور « لا شعورية » ويجعل المنطق يسود شعوره و بذلك يخفى عن الأنظار وجدانا جامحا . . ولو إلى حين .

تفكير الطفل فى سنته الثانية :

و بعد أن ينتهى الطفل من حل تناقضه الأول بكبت رغبة من الرغبتين المتضادتين يصادف تناقضاً آخر جديدا عليه . لقد بدأ يسير ويكتشف عالما أكثر ثراء بالأشياء وأوفر فى مصادر إثارته من مجرد سريره وذراعى أمه . ويشعر الطفل أمام هذا العالم بيواكير ذاته. إنه قادر الآن على الوصول إلى هذا الشيء الذى ظل ينظر إليه من سريره دون أن يستطيع الحركة . . . كما أصبحت المسافات التى تفصله عما حوله قابلة للاجتياز . . كل هذا يستطيع أن يحققه بنفسه دون الحاجة إلى أمه . ولكنه ينتبه إلى أن أمه تتدخل فى أمر لم يعلم قبل بأهميته ، ألا وهو عادات التبول والتبرز . لقد كان فيما سبق لا يراعى فى مخارجه حرجا . ولكن أمه تلح عليه الآن أن يفعل تلك الأمور فى أوقات وأماكن معينة . ويشعر الطفل إزاء تلك التعليمات الجديدة بتهديد لذاتيته الناشئة .

وينتبه بعد مدة إلى أهمية تبوله وتبرزه فى إرضاء وإغضاب أمه . وتمتزج لديه فكرة السيطرة على مخارجه برغبته فى توكيد ذاته .

ومن تلك التعليمات وما فى نفسه من رغبة فى تأكيد ذاتيته يقف الطفل أمام تناقضه الثانى فى حياته . إذا استسلم لتعليمات أمه فإنه بذلك يكتسب حبها ويفقد ذاتيته . فإذا عارضها فى أوامرها فقد حبها وأكد ذاته فيلبى رغباتها ساعة ويعترض عليها ساعة . يغضبها إذا أغضبته بأن يبول فى ملابسه ، ويهديها برازه فى المكان الذى حددته له — إذا أحبها وأحبته . ويتولد لدى الطفل إزاء هذا الموقف العصيب — بالنسبة له — مشاعر جديدة لجدتها . إنه قادر الآن على عقاب أمه والإعتداء على راحتها وقادر أيضاً على مكافأتها وإظهار مودته . ولكن كل تلك المشاعر تتعارض مع واقعه فهو ليس بعد قادراً على العقاب والإثابة قدر ما هو هدف للعقاب والإثابة .

فإثابته لأمه إثابة لنفسه ، وعقابه لها عقابا لنفسه لأنها تقابل الشيء بمثله . ويعمد الطفل فى تلك الظروف إلى إهمال رغبة من تلك الرغبتين . فإذا كان عقابه لأمه بعصيانها يفقده الحب ، مال إلى إنكار تلك الرغبة فى ذاته بكبتها . وإذا كانت إثابته لأمه بإطاعتها لا يأتيه بالحب ، كبتها وأبقى العدوان يدافع به عن

كيانه ، وهكذا يضاف إلى الوجدان الذى سبق كبته ما يزيده ثراء وقوة .

بذلك تسقط رغبة أخرى إلى لا شعوره ينساها حتى لا تؤرقه طالبة الإشباع وتضاف تلك الرغبة إلى أختها التى نسيت من قبل لينالا نفس المصير .. النسيان والانكار . ويزداد الغريب قوة إذ ينمو كلما نما الطفل . فذلك الجزء من الذات الذى سعى الطفل إلى التخلى عنه بكبته ، بمثابة الغريب لذاته العاقلة الاجتماعيــة . فالغريب يقف متحفزا للظهور إذا ما وهنت أمامه الرقابة .

تفكير الطفل فى سنته الثالثه « عقدة أوديب »

وينتهى من مشكلته الثانية ليجد نفسه أمام تناقض جديد . فقد أخذ أهله يميزون بين ذكورته وأنوثة أخته . وتنبه هو أيضا إلى ما يفرق بين أمه وأبيه . وأصبح لزاما عليه أن يقوم بدور خاص يختلف عن دور الجنس الآخر . فللرجال عادات وسلوك وللنساء طباع وميول . ويدفعه المجتمع — ونعنى هنا الأسرة — إلى اكتساب تلك العادات والسلوك التى تتفق مع جنسه ، وتمنعه من اتباع ما يقوم به الجنس الآخر .

ولا يجد الطفل إزاء هذا الموقف الجديد المبهم له إلا أن يقلد

أحد والديه يكتسب منه أساليب عيش جنسه . فالذكر يقلد أباه في سيطرته وخشونته وقدرته على التملك . والأنثى تتخذ من أمها هاديا لها فى دنيا الأنوثة . ونجد الطفل فى تلك السن ميالا إلى إكتشاف ما وراء ذلك الفصل بين عالم الذكورة والأنوثة من أسباب . ولن يعدم الطفل مصدرا للمعلومات التى يريدها . فقد يرى أن الذكر يتميز عن الأنثى بعضو تناسلى هو شارة الذكورة أو قد يلتقط بعض المعلومات ممن يكبرنه فيصوغها خياله الصغير ليصل إلى تلك الحقيقة .

ولا ينتهى الأمر لديه عند مجرد المعرفة .. بل نراه يحاول أن يتحقق من معلوماته . فالطفل الذكر يجد أن أباه يمتلك أنثى .. هى أمه .. ويصل به خياله إلى أن امتلاك الأنثى هو سبيل الرجولة ولا يجد أمامه من الأناث إلا أمه .. وفى تلك السن المبكرة لا يكون هذا بالأمر المشين له بقدر ما هو أمر يهدده بالخطر . فرغبته فى امتلاك أمه التى تعد ملكا لمثله الأعلى فى الرجولة يعرضه للخوف . فخياله يصور له أن أباه لابد منتقما منه إذا ماعلم برغبته فى ذلك الاختلاس . ويكون هذا الموقف ذا حدين : فهو يريد إبعاد أبيه ليحصل هو على الأم ، ويتوقع نتيجة لتلك الرغبة أن تتولد لدى الأب رغبة مماثلة فى إبعاده .

بل ويتعقد الأمر أكثر إذا تبين أن الطفل إنما يريد إبعاد ذلك الشخص الذى يحبه ويكتسب من التوحد معه الأسلوب الذى يمكنه من امتلاك الذكورة .

والأمر بالنسبة إلى الفتاة لا يقل صعوبة . فهى الأخرى تريد أن تتشبه بأمها وتبقى لنفسها رجلا . وليس أمامها إلا أباها رجلا يحقق لها أنوثتها . لذلك تقع فى حيرة من أمر نفسها فرغبتها فى الرجل تتعارض مع حبها لأمها ، وحبها لأمها الذى يمنعها عن أبيها — خطر على أنوثتها . وتشعر الفتاة بصراع مشابه لصراع الفتى .

ولا يقتصر الأمر على ذلك الصراع وحده . فالطفل الذى أدرك أن ذكورته تتمثل فى عضوه التناسلى ، يجد أن العقاب الذى يمكن أن يوقع عليه لرغبته فى أنثى أبيه هو الحرمان من ذلك الشىء . أما الفتاة التى تجد نفسها محرومة من تلك الميزة التى يتمتع بها أخوها ، تفسر حرمانها بأنه عقاب وقع عليها لتلك الرغبة . وإزاء ذلك الخوف يميل الذكر إلى وضع الأمر فى صورة صراع حول الأنثى . إما أن يحصل عليها بإخصاء خصمه ، وإما أن يفقدها إذا تمكن منه الخصم . أما الفتاة فإنها تبدأ المعركة بإحساس مبتدىء بالهزيمة ، وإن طمأنها على حالها أن الذكور

وحدهم هم الذين يملكون مايفخرون به ، وليس هناك ماتتمناه إلا أن تجد ما يعوضها عن فقدانها إياه كما عوض أبوها أمها عما تفقده .

وأخيرا يجد الطفل نفسه فى موقف يحتم عليه التنكر إلى إحدى الرغبتين وأن ينسى ما وراءهما من تهديد . فرغبته فى الأم التى قد تأتى له بالخصاء هى الأولى بأن تنسى وتكبت ، ورغبة الفتاة فى الأب أجدر بأن تلقى فى جب من الغفلة . وينتهى الأمر بتأجيل الحصول على الأم للذكر ، وعلى الأب للأنثى إلى حين الكبر والوصول إلى ما بلغه الأبوين . ويزداد اللاشعور ثراء ، ويقوى ساعداه يريد أن يطبق على الشعور ليظهر سافرا .. لولا حكمه التفكير التى تأبى أن تجعله يسودفيبدو البالغ طفلا ويغدو العاقل نزقا يطلب ما يستفحشه المجتمع .

تفكيرنا وكيف يسلم من المرض :

ولكن أين نحن بعد هذا الاستعراض من تفكير العقلاء البالغين . لقد تركنا الطفل فى سنته السادسة أو بعد أن تجاوزها بقليل ، فماذا حدث له بعد ذلك . إننا لا نحتاج إلى تتبعه بتفصيل فيما بعد . لقد تغلب على أكبر العقبات بكبت نصف ذاته داخله

مبقيا على نصفها العاقل الرزين ليواجه به المجتمع . لقد تغلب على خوفه من الحرمان بالثقة . ثم أبقى على تلقائيته حية وتوهم أنه قد أمات تبعيته بإغفالها ونسيانها . ثم خرج من نطاق الأسرة إلى المدرسة ليغير من دائرة معارفه ويوسعها . ثم يخطو نحو البلوغ ومشارف الشباب وفيها يمتلك أسباب التفكير المجرد ليتعامل به مع عالم أوسع وأرحب ـ ويخطو إلى الرجولة بعد أن تمكن من سليم التفكير وأحكم سيطرته على ذلك الغريب الذى تكون فيه طفلا ولا يزال قائمًا فى ذاته . خلال تلك الرحلة الشاقة التى يقوم بها الإنسان ليصل إلى النضج ، نلاحظ أنه يتنازل عن رغبات ليبقى على أخرى . والواقع أن الرغبة هى وجدان وموضوع . فالرغبة فى ابتلاع ثدى الأم وجدان الحب أحياناً ووجدان الخوف والشك وعدم الاطمئنان فى أحيان أخرى . أما موضوعها فهو الثدى ابتداء ثم كل ما يمكن أن يعطى شعورا بالحب أو أن يتسبب فى شعور بالخوف والشك وعدم الاطمئنان . بعبارة أخرى . يتنازل الإنسان فى رحلته إلى النضوج عن قدر كبير من وجداناته وموضوعاته . وفى أحيان كثيرة يتنازل عن موضوعات يفصلها عن وجداناتها ، أو عن وجدانات يفصلها عن موضوعاتها . فمن الناس من تجتاحه مشاعر

الخطر وعدم الاطمئنان دون مبرر كاف ، مما يدل على أنه قد تنازل عن موضوعات وأبقى على ما يرتبط بها من وجدان ، بينما آخرون يتمسكون بمواقف معينة دون مبرر مقنع وعلى الرغم مما يحمل بهامن إثارة الشك والألم ، فيدل على نقيض الآخرين .

بعبارة ثانية يؤدى التطور السوى إلى كبت رغبات منفردة بما تتضمنه من موضوعات لا تتناسب وظروف الحياة ووجدانات تؤتى الألم بدلا من السعادة. وينتج عن هذا الكبت إبقاء رغبات سوية ؛ موضوعاتها تصلح مادة للتفكير ووجداناتها تمتزج بها وتربطنا بعالمنا من خلالها فتجعل التفكير سويا من حيث أحكامه ؛ شخصيا من حيث وجداناته . أما التطور المريض فيتم فيه كبت فاشل للرغبات المنفردة فتبقى جوانب منها تتحفز لغزو عمليات التفكير إذا لم ينجح فى إقامة علاقة طيبة بين الشخص وعالمه .

الموقف إذن يتضح بجلاء . إن رغباتنا تتحقق فى العالم . فالرغبة فى الطعام لها موضوعات إشباعها فى العالم وهى أنواع الغذاء المختلفة . والرغبة فى الشهرة تتحقق من التعامل مع الناس. فإذا أمكن التفكير أن يكشف لنا عن تلك الجوانب من العالم التى تحقق لنا رغباتنا أحسن تحقيق فإن ما كبت من رغبات

منفرة ووجدانات فاسدة لن تجد الفرصة للتسلل إلى حياتنا لتعذبنا وتفسدها . أما إذا فشل التفكير فى وظيفته فإنه سيتيح الفرصة لتلك الرغبات أن تؤرقنا وتفسد علينا الأمور .

معنى ذلك أن التفكير هو نتاج لتطور إدراك الإنسان لعالمه وتعامله معه . فإذا نجح التفكير فى إرساء علاقة واقعية مع العالم وكشف للإنسان عن موضوعات مألوفة لتحقيق رغباته وإشباعها ، فإن الرغبات المكبوتة لن تجد فى هذا التفكير سبيلا لكى تتحقق بل ستجد منه رفضا واعتراضا . وكما أوضحنا فى تطور تفكيرنا ، سنجد أن اتجاه هذا التطور يسير من تخيل وتصور الموضوعات والعالم إلى إدراك العالم إدراكا واقعياً بمعونة التفكير الرمزى والذى يقوم على المفاهيم . وإدراك العالم واقعيا يحتاج منا أن نتعامل معه عارفين له مدركين لأنفسنا ورغباتنا وتمام تلك العملية أمر غير يسير على الإنسان فى كل الأحوال . لذلك يجمل بنا قبل أن ننظر فى تفكير المرضى أن ننظر فى ظاهرة أخرى شبيهة بالمرض ولكنها شىء مألوف لدى الأسوياء كذلك .

التفكير والأحلام

تكلمنا عن التفكير السوى عند الإنسان ، فبينا ما فيه من تناسق وما بينه وبين واقعنا من انسجام . ولكن أيظل الأسوياء يفكرون دائما على هذا المنوال وحسب تلك الأسس التى أوضحناها ؟ إذا كان ردنا على هذا التساؤل بالإيجاب كما يتبادر إلى الذهن فى أول وهلة . . فهل يظل كذلك لو حولنا نظرنا إلى الأحلام ، ذلك النشاط النفسى المتفكك الذى يخبره المريض والسوى دون تمييز .

إن أكثرنا عقلا وحكمة ، وأقدرنا على إطاعة المنطق فى تفكيره ، لابد أن حلم يوما حلما ، ابتعد فيه عن حكمته وتخلى عن منطقه . فنحن نحلم بالمتناقضات و نقبلها دون تردد ، ونرضى فيها بالغريب دون استهجان . فإذا ما أفقنا من نومنا شعرنا بغرابة ما كنا عليه ، وطرافة ما فكرنا فيه أثناء النوم .

وقد يعترض معترض على تسميتنا ماحدث أثناء الحلم تفكيرا ، فأنّى لهذه الأحلام أن تعد تفكيرا ، وهى أبعد ما تكون عن المنطق وأقرب ما تكون إلى الخلط والهلوسة ، إن مايدعونا

إلى اعتبارها تفكيرا هو نفسه ما يدفع المعترض على تسميتها بالتفكير . أليس اعتراضه مبنيا على اختلافها عن التفكير ، وكأنه لا يجد مفراً من مقارنتها خفية أو علانية بالتفكير ؟ إنّ مايجعله ينظر إلى الأحلام نظرة التحقير والاستنكار هو حكمه عليها بأنها حيدة عن سليم التفكير وقويم المنطق . وفى هذا التحقير وذاك الاستنكار ضرب من ضروب الاعتراف بأنها — أى الأحلام — تفكير وإن كان شاذا منحرفا . فالأحلام تفكير وإن كان من نوع مخالف غير مانألفه فى حالة الصحو .

من تلك الملاحظة نستطيع تعديل موقفنا من الإنسان . فالإنسان العاقل السليم التفكير ، يحيد عن عقله وسلامة تفكيره إذا أضجع ونام . وكأننا بصدد كائنين يسكنان جسدا واحدا . أولهما رزين يتسم بالمنطق ، والآخر نزق طائش يهمل المنطق ويعيث فى قضاياه فساداً ، وما أن ينام الأول حتى يصحو الثانى .. والإنسان فى هذا يحمل فى ثناياه الغريب ، الذى لا يعرف عنه إذا أفاق شيئاً .. ونقصد بالغريب هنا ، ذلك الجزء من أنفسنا الذى كبتناه فى طريقنا إلى النضج والذى لاشك باق يتحين الفرص كى يظهر مخربا فى التفكير . ولا شك أن النوم فرصة له ليفلت من رقابتنا ..

لننظر الآن إلى مايحدث لذلك الغريب إذا ماغفونا وتراخى رقيب الشعور عنه — إنه لاشك سينتهز تلك الفرصة كى يجد لنفسه سبيلا إلى الانطلاق . إننا فى صحونا نسلك و نعمل و نفكر فى إطار محدود بالواقع وعلى هداه — أما ذلك الغريب الذى انتهى به المصير إلى إنكاره وكبته ، فأدواته للتعبير محدودة ضعيفة. فليس له على الجسد الا سلطانا خافتاً ، ربما مكنه من تحريكه قليلا ، ربماجعله ينشط داخليا ، أما أن يدفعه إلى التنفيذ والانصياع له فهذا أمر نادر ، قلما نراه إلا فى حالات الجوال الليلى ، أو ربما فى حالات نادرة يأتى فيها النائم بأمور بسيطة . لذلك لايعدو أن يكون تأثير تلك الرغبات المكبوتة منذ الطفولة المبكرة نشاطا ذهنياً نطلق عليه كلمة الحلم .

وكى تظهر أساليب اللاشعور — وهو ما سبق أن أسميناه بالغريب لغرابته على الشعور — نعرض هنا بعض الأحلام وتفسيراتها لنبين من خلالها طباع هذا الجزء الخفى من ذواتنا .

حلمت سيدة أنها فى دار الأوبرا حيث امتد العرض إلى ساعة متقدمة من الصباح . نصبت فى القاعة مائدة الطعام حيث يجلس على المائدة قريب لها عاد من رحلة شهر العسل مع عروسه وصديق لها اتخذته عشيقاً فى علنية تامة . أما فى وسط القاعة

فهناك برج قد اعتلاه قائد الفرقة الموسيقية التى جلست عند قاعدة البرج ، حيث يقودها الشاب فى هياج مجنون . وما هى فى ذلك الحال حتى امتدت اليها يد أختها من القاعة « بينما الحالمة تجلس مع صديقة فى الشرفة » بجمرة كبيرة وهى تقول لها : لم أكن أعلم أن الأمر سيطول كل هذا الطول ، وأن البرد فى الشرفات قد أصبح لا شك مثلجا .

ولا شك أن فى هذا الحلم من اللامعقول ما يجبرنا على التحفظ فى وصفه تفكيرا بالمعنى المألوف للتفكير . ولكننا إذا علمنا أن تلك السيدة كانت على شغف بموسيقى شاب انتهى به الأمر إلى الجنون « برج المجانين » لوجدنا أن الأمر مشجع على متابعة الحلم لتعرف ما وراءه . لقد دفع حب تلك السيدة لذلك الشاب إلى تمنى رؤيته وقد اعتلى الجميع يقودهم كما هو فى الحلم ، ولكنها صورت أمنيتها فى إطار يسمح للعقل أن يتقبله على صورة أخرى « لقد اعتلى البرج وهو برج الجنون » . إنها تشعر بالحرمان من ذلك الحب الدافىء ، وتشعر ببرد الوحدة ، فإذا بأختها تمد يدها لتعطيها ما يعوضها عن ذلك البرد الذى تعيش فيه بعيدة عن الجمع الذى اجتمع بالقاعة وتقول الأغنية :

ما من نار وما من جمر يتقـد ويستعر
مثل حب مستتر لا يعلمه أحد

فلو دققنا فى الحكم بعد ماأمدتنا به الحالمة من أفكار تتعلق بأجزاء منه لوجدنا أن لسان حالها فى الحلم يقول : ما أشد برد العزوبية التي طالت منذ أن فقدت حبيبى الذى طار برج عقله بدلامن أن يعتلى برج الشرف والقيادة . ولكم أريد أن أستدفىء بحب ولو فى الكتمان ما دمت لا أستطيع أن أتخذ لنفسى عشيقاً علنياً كتلك العروس التى تزوجها قريبى .

هذا الحلم إذن رغم غرابته يحمل معنى وإن كان بعيدا عن متناول تفكيرنا العادى . وغرابته تأتى من طريق التعبير عن هذا المعنى . فالجمرة تصور الحب ، والجنون اعتلاء للبرج ، والعزوبة التى طالت تصور بعزلة فى مكان بارد . إن الحلم إذن يعبر عن عديد من الأفكار بصور بدلا من كلمات . ولكن هل هذه هى القاعدة : لننظر فى حلم آخر لسيدة قاربت أن تنتهى من علاجها النفسى فى مدينة كبيرة تسكنها بغرض العلاج وحده . كانت تلك السيدة قد ألحقت ابنتها بمدرسة بتلك المدينة لتتمكن من رعايتها فى غربتها أثناء العلاج . حلمت هذه السيدة بأنها تريد أن تدفع ثمن شىء ما فتأخذ ابنتها منها ثلاثة جنيهات (٣) وخمسة

وستين قرشا (٦٥) فتقول لها الحالمة : إن هذا لا يكلف أكثر من واحد وعشرين قرشا (٢١) فقط .

هذا الحلم المركب من أرقام لا علاقة لها ببعضها يحمل فى طياته معنى له صلة باقتراب انتهاء العلاج الذى بقيت عليه ثلاثة أسابيع « ٢١ يوما » والذى ترغب السيدة لو أنه بقى عاما آخر « ٣٦٥ يوما » . ولكنها ترى أن العلاج يكلفها الكثير . فتحلم بكل تلك العلاقات العددية التى تشير إلى عدد الأيام الباقية والتى تود لو استمرت أكثر من ذلك . إلا أن الإشارة إلى الوقت والأيام بالجنيهات والقروش يدل على أنها تحسب الأمور بمعيار الذهب وكأنها تقول « الوقت من ذهب » . وبذلك يكون المعنى الكلى للحلم : لو أن ثمن العلاج لعام انخفض ليصبح ثمن علاج لثلاثة أسابيع ما ترددت فى إطالة الأمر عاما آخر . . .

من هذين الحلمين وغيرهما نلمح أن الأحلام جميعاً إنما تصوغ رغبات للحالم لم يستطع أن يحققها فى صحوه ، فسعى إلى تحقيقها فى نومه . ولكن تحقيقها فى النوم لا يكون على نفس النسق وبنفس الوسائل الفكرية المعتادة . إذن ما هى وسائل التفكير فى الأحلام ؟

وسائل صياغة الحلم :

لا يراعى فى الحلم منطق أو تعقل — فالأضداد تتآلف والمعقول يقلب ويصبح نشاط العقل أثناء النوم ضربا من الهوس. والواقع أن الوسائل الأربعة المعروفة فى صياغة الأحلام جميعاً تدل على أن منطق الأمور فى الأحلام له طبيعة المنطق الفكرى للطفولة وقبل نضوج التفكير الرمزى للبالغين.

(ا) التصوير البصرى فى الحلم

إن أول تلك الوسائل هى تصوير الأفكار تصويرا بصريا. فالأحلام فى أغلبها صور تعبر عن أفكار. الجمرة هى الحب والتفوق اعتلاء للناس والعزوبة برد وقشعريرة. ونموذج التصوير الفكرى فى الأعلام يأتى من لغتنا الدارجة. فإذا أردنا أن ندعو لشخص بالخير قلنا له رفعك الله درجات فوق درجات. من هذا تصاغ الفكرة فى الحلم حيث لا توجد فى لغة النوم إلا الصور التى تعد كلمات إذا رتبت ترتيبا صحيحا نقلت إلينا المعنى وأوضحت لنا الرغبة وراء الحلم.

(ب) النقل والإبدال :

وثانى الوسائل هو النقل أو الإبدال. فعندما تكون الرغبة

منفرة يأباها الشخص إباء شديدا فإنه فى حلمه يجعلها رغبة آخر يقف هو منه موقف المعترض أو المتفرج . فتلك الفتاة التى حلمت بحبيبها المجنون ، انما نقلت رغبتها فى عشيق إلى تلك الفتاة الأخرى — وأبقت برد الحرمان لنفسها ، بينما كان معنى الحلم يشير إلى أنها تود لو كانت هى تلك الفتاة المستمتعة .

(حـ) التكثيف :

وثالث تلك الوسائل ما يسمى بالتكثيف . ففى الأحلام يتعامل الحالم مع شخص يشبه آخر وله اسم شخص ثالث فى الوقت الذى يمثل فيه هذا الشخص إنسانا رابعاً . ويقبل منطق الحلم ذلك المزج والخلط لأغراض يضيق عن شرحها المجال . إلا أن تلك الوسيلة إنما تخدم غرضاً واضحا وهو مجاراة الوسيلة الأولى التى يباشر فيها الحالم صياغة أفكاره فى صور تؤلف جملة .

(ى) الرموز :

ورابع تلك الوسائل هى الرموز — والواقع أن الرموز تحتل مكانا هاما فى المحاولات غير العلمية فى تفسير الأحلام ، ولكنها لا تحتل هذا المكان فى التفسير العلمى للاحلام . فالرموز وسيلة لا يلجأ إليها الحالم إلا فى ظروف تمتنع عليه فيها الاستفادة

من الوسائل الثلاثة السابقة — وتتبع الرموز من تراث الشعب لتجعل الملك رمزاً للأب فهو أبو الرعية ، وتجعل الدغل غابة والغابة رمزاً لأجزاء من جسد المرأة الغامض ، وتجعل من قطع ملابس الرجال رموزاً للرجولة ، وهكذا . وعادة ما نجد تلك الرموز فى الملح والنكات والنوادر .

ولكن لنعد فنسأل من جديد : أين الأحلام من التفكير ؟ الواقع أننا قد تبينا أن التفكير الإنسانى إنما هو محاولة الإنسان أن يحقق رغباته ، تلك الرغبات التى يرضى عنها المجتمع ويوافق عليها الضمير . ولكننا تبينا أن هناك رغبات أخرى يكبتها الشخص ولا بد أن يجد لها نوعا من التفكير الذى يحققها . لذلك يعد الحلم هو ذلك التفكير الإنسانى الذى ينشط أثناء النوم ليحقق للسوى تلك الرغبات المكبوتة التى لو عبر عنها فى صحوة لأصبح مريضا .

الحلم والمرض النفسى :

هل معنى ذلك أن الحلم مرض ؟ نعم ... إن أحلامنا ضرب من المرض النفسى والعقلى الذى نعيشه فترة الليل حتى لا نعيشه فى نهارنا فنشقى به ... بل إننا إذا درسنا المرض النفسى والعقلى

سنكتشف أن وسائل الحلم الأربعة لها طبيعة التفكير فى تلك الأمراض .. إلا أن مايهمنا الآن هو الانتباه إلى الحقيقة القديمة والجديدة فى نفس الوقت .. لقد قلنا إن اختفاء التفكير السوى يسمح للوجدانات والرغبات المكبوتة من الظهور . وهنافى الحلم نجد أن غفوة النائم أشبه بانسحاب التفكير السوى وانكماشه إلى حد كبير لذلك تظهر الرغبات المكبوتة واضحة وكتفكير خرف غريب . من هذا يمكننا أن ندخل إلى عالم المرض النفسى . هل المرض النفسى غفوة للتفكير السوى أم هو تفكير من نوع خاص ؟ أو إذا أردنا الدقة ماذا يحدث عندما يمرض تفكيرنا ؟

• عندما يمرض تفكيرنا

لم نتعرض حتى الآن فى استعراضنا للتفكير واختلافاته — لم نتعرض لما يصيب التفكير من مرض . فنحن نتباين فى تفكيرنا دون أن نشذ . ولكن بعضنا يتباين فى تفكيره حتى الشذوذ مما يجعلنا نطلق عليه ماينعته بالجنون إذا كان الشذوذ دائماً وواضحاً ، أو أن نصف حالته وصفاً مخففاً إذا كان الأمر فى نطاق محدود أو فى مجال بذاته أو فى وقت بعينه .

ولنا أن نتساءل الآن . كيف — يمرض التفكير حتى يصبح دليلا على الجنون أو حتى يشير إلى اضطراب نفسى بسيط.

لقد أشرنا فيما سبق إلى مواطن ثلاثة ينبع منها اختلاف تفكير الأسوياء و نلخصها فى القدرة على تكوين وفهم و استعمال المفاهيم ، وميلنا إلى الاهتمام بشكل الموضوعات أو بمضمونها ، ثم سهولة الانتقال من الشكل الى المضمون أو بالعكس . فهل يمكن لنا أن نرجع مرض التفكير الى تلك المواطن الثلاثة ذاتها — أم أن هناك مصدراً آخر للاضطراب فى موضع آخر من تفكيرنا ؟ وإذا كان مرض التفكير يصيب تلك الجوانب بذاتها فهل يسمح ذلك باندفاع الوجدانات المكبوتة الى علاقتنا بالعالم ؟

قبل أن نبت برأى فى هذا الموضوع ، نميل قليلا إلى مشكلة قديمة فى علم الأمراض النفسية فنلم بأطرافها . لقد ظل علماء الأمراض النفسية يتناقشون ويتباحثون فى أصل الاضطراب العقلى الذى يسميه العامة جنونا والذى يسميه المتخصصون « ذهانا » فقال البعض إن الذهان ما هو إلا نقص متضخم فى التفكير . يدفع الشخص الى سوء الحكم على الأمور ويعزله عن الواقع فيشذ سلوكه حتى يصبح مجنونا أو مذهونا . وقال البعض الآخر إن الذهان يختلف فى جوهره وفروعه عن أى سلوك سوى — بل إن السلوك الذهانى له أصل وخصائص لا يمكن مقارنتها من أى وجه بأى سلوك سوى .

وقد رجحت البحوث النفسية الكثيرة الرأى الثانى القائل بأن الذهان مستقل عن السواء فى أصله منعزل فى طبيعته عن السلوك العادى للأفراد . وقد بينت أكثر تلك الدراسات أن الذهانى يختلف عن السوى فى أعظم نواحى شخصيته اختلافات أصلية . وقد دفعت تلك الحقائق العلماء المنادين بالرأى الأول إلى تعديل نظريتهم فقالوا بأن التغير الكمى فى سلوك السوى ينقلب عند زيادته زيادة كبيرة إلى تغير كيفى — أى إلى تغير يصيب طبيعة السلوك — وبذلك أصبحت الشخصية الذهانية والتفكير الذهانى ذا صفات مستقلة قائمة بذاتها .

ثم تطرق النقاش إلى تلك الأعراض النفسية التى نرى البعض يعانى منها دون أن تدفعه تماما إلى هوة الجنون . وقد أطلق علماء النفس على تلك الحالات لفظ « العصاب » مفرقين بينه وبين « الذهان » بطبيعة خاصة لجملة الشخصية . فقد ميزوا فى الذهان انفصالا تاما بين الشخص وواقعه دون إحساس الشخص بهذا الانفصال — بينما وجدوا فى العصاب أن حالة الشخص مهما زادت حدتها لا تبعد إلا جوانب محددة من شخصيته عن الواقع مع إحساسه من وقت لآخر بغرابة سلوكه هذا . لقد تطرق

الحديث أيضا إلى العصاب وهل هو درجة بين الذهان والسواء أم أنه يتميز بخصائص معينة .

ورغم شدة الميل إلى اعتبار العصاب مرحلة وسط بين شذوذ التفكير وسوائه ، إلا أن هناك مايرجح اعتباره مجموعة مرضية لها طبيعتها المستقلة أيضا .

نعود الآن إلى سؤالنا كيف يمرض تفكير الشخص فيصبح دليلا على الذهان أو العصاب ؟ وهل يمكن أن تكون مواطن الاختلاف الثلاثة المشار إليها هى نفسها المعرضة للشذوذ والمرض ؟

نستطيع الآن أن نخاطر فنعتبر تلك المواطن ذاتها هى مواطن الشذوذ فى التفكير الذى يؤدى بالشخص إلى الذهان أو العصاب . ولم لا ! !

فما دام تحليلنا للتفكير لم يخرج عن تلك الأوجه الثلاثة فما الذى يدعونا الى الالتجاء الى وجه آخر لم نصادفه فى تفكير الأسوياء ؟

وما دام الأفراد يختلفون فيها كميا ، فليس هناك مانع أن يختلفوا فيها كيفيا أيضا . فليس من المستبعد أن نجد الذهانى يكون ويفهم ويستعمل المفاهيم استعمالا يختلف فى أصله عن السوى . وليس من الغريب أن يكون إدراكه للكون يتسم

بصفات خاصة من حيث تعامله مع شكل الكون ومضمونه. وليس من البعيد أن نجده يتميز بأسلوب خاص في تنقله بين الشكل والضمون إذا كان يتنقل بينهما في تفكيره مثلنا. والأمر يصح بالنسبة للعصابي أيضا. فرغم أن شذوذه محصور ومرقم ومؤقت بظروف معينة، فربما وجدناه أيضا يتمتع بأسلوب فريد في التفكير في حدود تلك الظروف.

لذلك سنتناول اضطراب التفكير عند العصابي وعند الذهاني من نفس الأطراف الثلاثة التي تناولناها في دراستنا لتفكير الأسوياء.

تفكير العصابيين «المرضى النفسيين»

أصبح من الشائع في أيامنا هذه أن يستعمل الناس في أحاديثهم تعبيرات علم النفس بوفرة. فالذي يحدثك عن غرابة سلوك يستسهل أن يفسر تلك الغرابة بعقد النفس وشذوذها. وقد تعدى الأمر حدود سلوك الناس إلى سلوك الأمم والجماعات فهناك من يحاول أن يفسر سياسة الدول أو اتجاه الجماعات على أساس عوامل نفسية تصطدم في نفوس الناس عامة وبشكل موحد.

وازدياد اهتمام الناس بعلم النفس لم يكن وليد انتشار الأمراض النفسية في عصرنا بشكل لم يعهده الأقدمون. بل لقد خبر

أسلافنا تلك الأمراض ، وإن فسروها تفسيرات أخرى بعيدة عن علم النفس . وليس هذا الاهتمام نتيجة ازدياد حساسية الناس بأمراض النفس فى القرن العشرين ، كما قد يحلو للبعض أن يفسره بل يعود هذا الاهتمام إلى ما وجده الناس فى مكتشفات علم النفس من سبيل إلى فهم ماظل منذ القدم بعيداً عن الفهم مستغلقاً عليه .

لقد كان الأقدمون يفسرون أمراض النفس باعتبارها نتيجة لتدخل قوى خارجية لا نعقلها فى شئون الشخص . فليس المرض النفسى — لدى الأقدمين — نتيجة لما فينا من شذوذ ، بل هو نتاج سيطرة قوى السماء أو قوى الأرض على جسد المريض . لذلك لم يتوانى أطباء تلك العصور عن معاملة هؤلاء المرضى بقسوة لأنهم لم يشعروا بأن قسوتهم موجهة للمريض ، بل إلى تلك الروح الشريرة التى تقمصته . ثم جاء التحليل النفسى ليكشف لنا مافى نفوسنا ونجهله ، الذى يسبب لنا الاضطراب . ووجد الناس فى تلك التفسيرات أموراً أقرب إلى عقولهم من التفكير الخرافى السحرى الذى لمسه الأقدمون . وأصبح من اليسير على غير المتخصصين أن يشرحوا شذوذ النفس بعبارات « كالعقد » ، واللاشعور ، والصراعات الجنسية .

إلا أن ذلك الاهتمام بالتحليل النفسى ووفرة استعمال مفهوماته ، لا يدل على فهم النـــاس لذلك الجانب من المعرفة الإنسانية فهماً صحيحاً ، فالسلوك الغريب لا يفهم على أنه نتيجة لأمور لا نشعر بها . . . وبذلك لا نفهمها بل لقد كان دور التحليل النفسى فى إجلاء الغموض عن دوافع النفس يدور حول اسـتبدال التفسيرات الآلية كالعفاريت أو حتى الاضطراب الفسيو بيولوجى بشرح دينامى لعوامل واضحة نفهمها . إلا أن الأسلوب العلمى حتم على علمـاء التحليل النفسى أن يصوغوا تفسيراتهم فى عبـارات مختصرة ، تلك التى استبدل بها الناس العبارات السابقة واستعملوها نفس الاستعمال .

•

ربما إعتبرالبعض أن ذلك الرأى مثبط لهمتهم ومحبط لرغبتهم فى مسايرة عصرعلم النفس . وقد يجد البعض فيه محاولة لـكى يبقى علم النفس احتـكاراً لعلمائه ولـكن القصد من ذلك الرأى هو تبصير هواة علم النفس بمواطن الخطأ التى يندفعون إليها دون ترو . بل يتعدى الأمر مجرد إظهار مواطن الصعوبة إلى الـكشف عن أصول أخرى فى علم النفس ربما كانت مجالا لهم كى يستمتعوا بعلم النفس استمتاعا أكبر .

العقدة النفسية Complex :

من الطريف حقاً أن نختار تعبيراً نفسياً كتعبير « العقدة » مثالا لما فى استعماله الحالى من خطأ ، ولما فى استعماله الصحيح من مزايا . لقد شاع استعمال كلمة العقدة بشكل كبير فى حياتنا اليومية ، حتى أصبح يطلق على كل سلوك لا نفهمه أو كل شعور لا نستسيغه . والواقع أن هذا التعبير ترجمة خاطئة لأصله الأجنبي وهو Complex ويعود إصرارنا على استعمال الترجمة الخاطئة إلى نفس السبب الذى جعل هذا التعبير يشيع فى أمور معايشنا بهذا الشكل الواضح . ويمكن لنا لو أننا وجدنا السبب فى خطأ الاستعمال وفى شيوع الاستعمال لذلك التعبير ، أن نقترب اقترابا كبيراً من طبيعة التفكير عند المرضى النفسيين .

إن الترجمة الصائبة لتعبير Complex هى مركب . ولكن ما الذى جعلنا نستعمل كلمة العقدة بدلا منها ؟ الواقع أن «العقدة» تقف عند طرف يكون طرفه الآخر هل « الحل » . فلو نظرنا إلى ما فى هذا التقابل من معنى لوجدنا أننا نستعمل كلمة العقدة للدلالة على عكس الحل أو الانطلاق . فكل سلوك نفهمه هو فى الواقع سلوك به جانب مكفوف ، أو هو محاولة لإتيان

فعل دون القدرة على إتيان هذا الفعل مما يخفيه عنا ويجعلنا لا نفهمه . فهذا الشخص معقد من الرؤساء ، أى أنه لا يستطيع أن يتعامل معهم بطريقة سليمة . وذلك معقد من الزحام ، بمعنى أنه لايمكنه أن يقضى فترة فى زحام رغم ضرورة ذلك فى حياته اليومية ، العقدة إذن تعبير عن الرغبة فى شىء والعجز عن تحقيق الرغبة مما يجعل السلوك غير مفهوم والتصرف شاذا ومعقداً . ولو حاولنا أن نفحص تقاليدنا كى نفهم موقفنا من الانطلاق والتعقد لوجدنا فى ريفنا من يؤمنون بفاعلية الربط ، والربط هو سحر يوجه إلى عدو فيصبح عنيناً لا يستطيع الاستمتاع الجنسى ، وليس من باب الصدفة فقط أن نستعمل كلمة العقدة كتعبير مهذب علمىّ للدلالة على شىء يعنيه غير المثقفين وهو الربط . فالواقع أن السلوك المعقد هو ربط وحرمان من الحصول على المتعة بصورها المختلفة وغير الجنسية أيضاً .

السبب المشترك إذن بين استعمالنا لكلمة العقدة بتلك الوفرة وإصرارنا على الترجمة الخاطئة هو أن السلوك المعقد ، سلوك يحرم الشخص من تحقيق رغبته ويمنعه من الوصول إلى متعته . ولو أردنا أن نزيد الأمر إيضاحا لقلنا بأن المريض النفسى يتميز بسلوك مركب لا نفهم عناصره كما أنه لا يفهم علته ، هو سلوك

لا يهدف إلى المتعة والسعادة بل إلى شيء أقرب إلى العذاب والشقاء . ولكن ماالصلة بين ذلك السلوك المركب وبين عناصر التفكير الثلاثة التي سبق أن أثبتناها بصدد التفكير السوى ؟ ، وحتى نعود فنذكر ما أثبتناه ، ماهى علاقة المركب النفسى بالتعامل مع المفاهيم وبالميل إلى الشكل أو المضمون ، وما علاقته بسهولة الانتقال بين الشكل وبين المضمون .

الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تعود بنا من جديد إلى كيفية تكوين المفاهيم . وحتى نبرز تلك النقطة سنتناول عرضا نفسيا واضحا نعالجه معالجة فكرية لنحاول أن نفهم تركيبه ولنخرج منه بحقائق تخص عملية نشأة المفاهيم لدى الإنسان المريض .

حالة مرضية :

موظف شاب يعمل بإحدى الشركات ، أصابته نوبة شديدة من القلق والشعور بالاكتئاب . وقد أصابته تلك النوبة بعد أن رقى إلى منصب نائب مدير الشركة التي يعمل بها . وكان هذا المنصب موضع طموح الشاب منذ أن التحق بالشركة وعمل جاهدا حتى ناله عن جدارة جعلت مدير الشركة يشجعه ويدفعه لنيل

مأربه . وحتى تكتمل لنا صورة هذا الشاب ، يمكننا أن نعرف عن تاريخه أنه الابن الوحيد لأمه الأرملة ، التي توفى عنها زوجها منذ كان هذا الشاب طفلا صغيرا مخلفا لهما فقراً وعوزاً . ودفعته أمه إلى عمه الثرى أملا فى أن يعينه وأمه على رقة حالهما ، فما كان من العم إلا أن قابله مقابلة جافة ورده ردا عنيفا أحفظ نفس الطفل عليه وأفقده حبه له . ولم ينثن طفلنا هذا عن قويم السلوك فكبر وعمل حتى التحق بتلك الشركة وتدرج سلمها إلى أن نال ذلك المنصب الرفيع فيها وأصبح قاب قوس واحد أو أدنى من منصب المدير الذى اقتربت سنه إلى حد المعاش . وهنا جاءته النوبة فأفسدت عليه فرحته بالعمل الجديد وحرمته من ثمرة جهد آل على نفسه أن يبذله بعد أن رده عمه رداً قاسياً .

الوقع أن عرض هذا الشاب لم يقتصر على مجرد القلق والاكتئاب بل لقد رفض أن يحصل على مرتب الوظيفة الجديدة وتغيرت علاقته برئيسه الذى حباه برعايته وحبه فأصبح يضطرب ويرتبك إذا لقيه أو اجتمع به وكأنه قد أساء إليه إساءة بالغة بعد ما كان على ألفة شديدة معه . وكثيرا ما كانت تراوده أفكار الانتحار متهماً نفسه اتهامات خلقية مزعجة . وانتهى به الأمر إلى عدم مغادرته بيته حيث بقى بجوار أمه .

لا يسمح المجال بأن نعرض مراحل الكشف فى جلسات علاج هذا المريض ، لذلك سنكتفى بعرض بعض ما تكشف خلال علاجه وعود تفكيره إلى حال السواء .

إن النقطة التى انطلقت منها شخصية هذا الشاب فأحالت حياته إلى شقاء تكمن فى ذلك الموقف الذى وقفه يوما أمام عمه . فقد كانت حاجة هذا الطفل إلى عمه حاجة مزدوجة وشديدة ، فمن جانب كان فى حاجة إلى عمه بديلا لأبيه الذى فقده بعد أن أحبه ، ومن جانب آخر كان فى حاجة مادية لذلك العم حتى يعينه ووالدته على قسوة الأمور . بل ربما تداخل الأمر بين الجانبين فأصبح حصوله على معونة العم المادية دليلا على تقبل العم له وجدانيا . فلما رفض العم ذلك العون المطلوب منه أحنق عليه الطفل وأشعره بالذلة فأبدل الحب الذى أتاه به إلى كره نحوه . ولشد ما اضطربت نفس الطفل لحظتها . لقد تمنى ساعتها لو أن الأماكن تبادلت فأصبح هو العم الثرى وغدى العم هو السائل المحتاج ، عل فى ذلك التبادل ما يعفيه من الخجل وما يشفى غليله فى أن يرد القسوة إلى عمه . ومن شد قسوة الموقف عليه ومن فرط ما كان فى حاجة إلى عمه ، زادت رغبته فى أن يتبادل مع عمه الأدوار ليقسو عليه قسوة شديدة . ولكن نفسه البكر

لم تتحمل تلك القسوة منه تجاه عمه وأثارت شعورا بالإثم ساعده على كبت رغبته وتحويلها إلى الطموح والتفوق . وفي طموحه ورغبته في التفوق إنما كان يسعى إلى نفي شعوره بالحاجة إلى أحد وإلى إلغاء تلك الرغبة في أن يصبح هو سيد الموقف ومانح الحب أو مانعه . والواقع أنه في كفاحه في الحياة إنما كان يهزم عمه الذي هزمه ويتفوق على عجزه الذي أقلقه وأوقع في نفسه الخجل لما يثيره من رغبات عدوانية .

تلك هي النظرة العامة لموقفه من عمه . ونحتاج إلى نظرة خاصة إزاء ظهور رغبته في حب عمه وفي مصير تلك الرغبة . حتى يمكننا أن نتحسس بداية تكون مفهومه عن الحب والكره ومفهومه عن العلاقة بالرؤساء وبالمرءوسين .

لقد رغب هذا الطفل في حب عمه كما رغب في دليل الحب وهو العون والتشجيع . فلما صده عمه وأحبط مسعاه وجدنا الطفل يرغب في أن ينقلب هو العم ويتحول العم إلى حالته . والواقع أننا في طفولتنا ، نرغب بل ونشطط في رغباتنا دون أن نعرف كيف نريد . فالطفل يعرف ما يريد ولكنه لا يعرف كيف يريده . وطفلنا هذا عرف ما يريد وهو ألا يكون في حاجة إلى عمه ، ولكنه لم يعرف كيف يحقق هذه الرغبة

تماما . إن عجزه عن أن يصبح فى غير حاجة إلى عمه جعل من هذا العم مثالا يود لو أنه أصبح مثله ، وأنّى له ذلك فى سرعة إلا باستيلائه على ثروة العم وعلى مكان العم ومركزه . وماذا يكون حال العم إذا ما استولى صاحبنا عليه ، لا شك أن حال العم سينقلب ليحتل مكانه ويصبح هو الصغير المحتاج السائل . إننا هنا بإزاء عملية يسميها علماء التحليل النفسى بالتعيين Identification . وبعبارة أخرى ، لقد حدد طفلنا الرغبة بالعم وحدد نفسه بعمه . وفى هذه اللحظة التى لا يمكن لشعور الطفل أن يعيها يلتبس الأمر عليه فلا يعرف من الذى يرغب ومن الذى يمنع ، ومن الذى يذل ومن الذى يستهدف للإذلال . إنها لحظة تبتلع وجوده كله وتشكل مستقبله إلى أمد بعيد ، حيث يستمد المستقبل زاده من الحركة من تلك اللحظة التى تجمد عليها وجدان الطفل فانقلب حبه بغضا وتغير ميله إلى الحصول على عطف العم إلى قسوة يريد تنفيذها تجاه ذلك العم .

فى تلك اللحظة التى خبر فيها الطفل وجودا قاسيا أراد فيه أن يخرج بمفهوم عن الحب يميزه عن الكره ومفهوما عن السطوة يميزه عن الذلة ، حدث هذا الخلط بينه وبين عمه . ولا شك أن عمه كان يمثل فى ذلك الموقف الكره أو رفض الحب والسطوة

والقدرة على الإذلال بينما كان الطفل يمثل الأقطاب المقابلة . فلما حدث الخلط وتعين بعمه وكبت رغبته تلك ، حدث خلط فى تلك المفاهيم البكر كذلك فامتزج الحب بالكره ، والقوة بالضعف وأصبح من الصعب على طفلنا أن يخصض من تلك المفاهيم فيما بعد .

يمكننا أن نجمع بين خاصية تكوين المفاهيم وقابلية المفاهيم للانتقال إلى مستوى التخصص والتخصيص فى وحدة واحدة . وفى طفولتنا ونحن بعد على غير خبرة بالصورة المختلفة للأمور ، لا نجد مفرا من أن تتشبث بما كوناه من مفاهيم سريعة وعامة ولا نستطيع أن نتخلى عنها لخشيتنا من أن نتوه فى خضم التفاصيل التى تتوارد علينا. لذلك نلاحظ ميل الأطفال إلى أن يعالجوا مشاكلهم معالجة لها طابع التخصيص . فإذا رغب الطفل فى كرته الحمراء رفض أى كرة أخرى لها نفس الصفات دون أن تكون كرته . والواقع أنه فى ذلك يعمم ولا يخصص لأن كرته هى كل الكور أما غيرها من الكور فلا صلاحية لها مهما كانت . من هنا يبدأ تكوين المفاهيم ، تبدأ عيانية مادية أولا ، لها طابع التخصيص ولكنها تعميمية من حيث علاقتها بالشخص نفسه . ومع ازدياد الخبرة بالعالم وتنوع تلك الخبرة تتحول إلى التخصيص

دون أن تترك مقعدها الأصلى وهو العموم . ولا يتأتى للإنسان أن ينتقل إلى التخصيص إلا إذا ميز بين ما يراه وبين ما يراه الآخر ، فبدون ذلك يظل يستعمل مفاهيمه بوصفها تلخيصا لعالم يعيشه هو وحده فى الوقت الذى يكون العالم على شاكلة أخرى بالنسبة إلى الآخر .

إن إدراك وتمييز وجهة نظر الآخر عن وجهة نظره بالذات يفتح لنا المجال للدخول مباشرة فى طبيعة تفكير المريض النفسي. فالطفل الذى عاش خبرة انفعالية قوية فى علاقته بعالمه ، ينجذب إلى تلك الخبرة انجذابا شديدا بكل ماعاناه فيها من تهديد لوجوده فى انجذابه نحوها يظل ويبقى معتقدا أن ما تكون لديه من مفاهيم بكر وأفكار ذاتية تصلح لما يتلوا من مواقف . بل الأكثر من ذلك ، أن تعطيل انطلاق المفاهيم نحو آفاق التخصيص نتيجة لبقاء الرغبة فى اكتشاف الواقع مركزه على الطفل نفسه ، أن ذلك يجعل المواقف الأخرى والتى لا علاقة لها بالخبرة الماضية تأخذ فى خيال الشخص نفس شكل تلك الخبرة السابقة .

شكل المواقف وعلاقته بالمرض النفسى :

لنعد إلى الشاب المريض لنلاحظ كيف يحدث هذا الأمر الغامض . إذا نظرنا إلى حالته بعد نيله الترقية لوجدناه يبدى

سلوكا غير متوقع . فقد حقق رغبته فى الترقية والتى بذل الجهد الشاق فى سبيلها ، ولكن ذلك سبب له الشقاء بدلا من أن يسعده . وانقلب حب مديره له من مصدر لاطمئنانه وألفته إلى مصدر لخجله وشكه وتخوفه . إن تحقيق رغبته فى الترقية أصبح مثيراً لسلوك مناقض تماما لما يجب أن يحدث . ولفهم الموقف يجب أن نعود إلى تحليل موقفه الأسبق من العم .

اتجه الطفل إلى عمه ولديه رغبة فى إمكان العم أن يحققها له ، وعاد الطفل وقد رده العم فلم يحقق له ما أراد . فعناصر الموقف هى :

(ا) رغبة فى المساعدة من العم مضمونها الأمل ونتيجة تحقيقها الحب .

(ب) رفض العم مساعدته ومضمونة اليأس ونتيجة ذلك الكره .

(ح) رغبة فى أن يصبح هو العم ومضمونها العدوان ونتيجتها الخجل والخوف .

أما موقفه من مديره فيضم هذه العناصر .

(ا) رغبة فى الترقى ومضمونها الأمل ونتيجتها الحب .

(ب) تحقيق لتلك الرغبة مضمونها اليأس ونتيجتها الخجل والخوف .

لو قارنا بين الموقفين لوجدنا أن هناك حلقة مفقودة إذا وصلنا إليها اتضحت لنا هذه النتيجة غير المتوقعة . إن الاختلاف بين موقفه من عمه ومن مديره يتركز فى أن الأول لم يحقق الرغبة والثانى حققها . وكانت النتيجة واحدة . الحلقة المفقودة إذن هى تحول تحقيق الرغبة إلى إحباط .

كيف يمكن أن يحدث ذلك إن لم يكن تحقيق الرغبة إحباطالرغبة أخرى ؟ الواقع أن موقفه من عمه وكما سبق وأوضحناه لم يكن موقفاً نقيا إن رغبته فى الطفولة كانت مزيجاً من مال وحب وكان ما جاء به الطفل إعلانا لرغبته فى المال وإخفاء لرغبته فى الحب . لذلك انتهى به رفض عمه إلى إنكار للحب وكبت له وإبقاء للمال والقوة وإعلان لها . وعندما حقق له مديره رغبته فى المال والقوة كانت ذلك إثارة لما كبت ، حرف وحول إلى كره وخجل وخوف . لذلك أدى تحقيق رغبته العلنية إلى تحقيق ضمنى لرغبته التى أخفاها فأثارته مما جعله يرفض الترقية حتى لا يحقق تلك الرغبة المكبوتة . لقد كان تحقيق الرغبة إحباطا لرغبته فى أن يخفى كرهه لمديره الذى خلط بينه وبين عمه .

ولكن يلح هنا تساؤل جديد . لماذا أخفى هذا الطفل رغبته فى الحب واعتبرها جديرة بالكبت ؟ ثم كيف ارتبط الحب المرفوض والمتحول إلى خجل وخوف بالترقية ؟ إن هذا الطفل فى اتجاهه إلى العم بعد وفاة أبيه لم يكن فى حال سوية فى عمومها فوت الأب الذى كان الطفل يحبه ويكرهه فى نفس الوقت وكما سبق أن بينا فى مرحلة الأوديب جعله يحاول أن يخفى حبه لأنه ممتزج بالكره وأن يعلن رغبته فى المساعدة المادية وحدها . وعندما رفض العم ذلك وأثار فى الطفل الغضب عاودته مشاعر العداء القديمة تجاه الأب فأسرع بكبتها وإخفائها وإبدالها بالخوف والخجل . وقد تحولت هذه المشاعر إلى الخوف والخجل لتأنيب ضميره على رغبته فى إبعاد أبيه وهو ما تحقق . وهكذا ارتبطت الترقية بالخجل والخوف . لقد كان موت أبيه ترقية له من مرتبة ابن إلى مرتبة والده . وكان الجدير به إذا نفذ كرهه فى العم أن يرتقى ليرث ماله ويحل محله . ثم كانت ترقيته من مديره تحقيقا لما يثيره فيه الشعور بالذنب لأنه سيصبح هذا المدير ويرث ماله أو راتبه .

لقد كان امتزاج الحب بالكره نحو والده ومحاولته كبت الكره والشعور بالخجل نتيجة ذلك ، ولقد كان فكاك الكره

من إسار الكبت فى موقفه من عمه ومقاومته ذلك بإبقاء رغبته فى التفوق ، لقد كان ذلك مدعاة لاكتساب مفهوم عن الحب باعتباره عدوانا . ومفهوم عن الترقى باعتباره سطوا على مال الغير . وليس مما فيه شك أن ما خبره الطفل صغيرا كان فعلا حبا مزيجاً بكره ورغبة فى السطو والاعتداء . ولكن ذلك كان موجها إلى والده وعمه من بعده . ثم عمم كل ترق وكل حب من خلال هذه المفاهيم الطفلية . وبذلك توقع من حب رئيسه له أن يكون مزيجاً من كره ورغبة فى الاعتداء عليه .

إن ذلك التعميم الذى لم يتجاوزه مفهوم الحب لدى هذا الشاب صغيرا ، كان عدته فى موقفه من النجاح كبيرا . لذلك انقلب الحال وتشابكت أطراف الموقفين فأصبح السبب مسببا ، والمرغوب مكروها . إن دور الطفولة فى مرض التفكير لدى المصابين خطير . فمفاهيم الطفولة الصبيانية تبقى على حالها تصوغ العالم بعد ذلك فى الشباب حسب تلخيصها للأمور . ويعالج الشاب تلك المواقف معالجته للمواقف الطفلية السابقة ، فنجد أن تداخل الطفولة والشباب معاً من خلال مفهوم تعميمى يعطى تلك الصورة المركبة .

طبيعة المفاهيم فى المرض النفسى :

لنوجز الأمر إذن فيما يختص باستعمال المفاهيم فى المرض النفسى ... يتميز التفكير لدى المريض النفسى بسيادة المفاهيم التعميمية فيه و بقائها عند هذا المستوى . و ينشأ عن سيادة هذا النوع من المفاهيم على التفكير أن تصبح قدرة الشخص على إدراك المواقف الجديدة محدودة ولا تخرج عن إمكانيات مفاهيمه التعميمية فى كشف اختلاف تلك المواقف عن غيرها. وما أشبه مريض النفس بشخص يقول بأن لديه « عقدة » من النساء منذ أن هجرته حبيبته مع آخر . فهذا « المعقد » إنما يرى جميع النساء على شاكلة حبيبته التى خانته ، ولا يستطيع أن يكتشف فى غيرها من النساء من هن على وفاء وحب .

وقبل أن ننتقل إلى الفكرة الثانية ، يجب أن نجيب على سؤال عارض : هل السلوك المركب هو نتيجة لاستعمال مفاهيم تعميمية ، أم أن ماخرجنا به من تحليل استعمالها لدى المصابين أمر مستقل ؟ الواقع أن الصورة المركبة من سلوك العصابى نتيجة مباشرة لاستعمال مفهوم عام فى موقف خاص . فمريضنا قد عامل رئيسه بوصفه عمه فباشر مع الرئيس ما باشره سابقاً

مع العم ، ولولا ذلك لأصبح سلوكه على غير ذلك دون شك . فموقفه من رئيسه لا يستدعى اتخاذ موقفه من عمه لولا ذلك المفهوم المعمم المشترك ، ولولا التعطل الذى أصاب مفهوم الحب والتفوق فأصبح الحصول على الترقية يستدعى الحرمان الذى ارتضاه الشاب لنفسه يوم أنب نفسه على رغبته فى أن يعتدى على عمه .

الميل إلى شكل الموقف ومضمونه فى المرض النفسى :

ماذا يكون الأمر بالنسبة إلى الميل للتعامل مع الشكل ومع المضمون ، فى المرض النفسى ؟ .

لو حللنا حالة هذا الشاب من حيث شكلها ومضمونها ، ماذا سنجد لنفهم تفكير المريض النفسى .

إن العناصر التى تكون شكل الموقف النفسى الذى أدى مباشرة إلى ظهور أعراض هذا الشاب لا تخرج عن كونها تحقيقاً لرغبته الملحة فى التفوق والوصول إلى أعلى منصب حيث لايكون له رئيس ، والواقع أنه لم يصل إلى ذلك تماما، بل شارف هذا الحدوأخذت نفسه تحدثه باقتراب المأمول . إننا إزاء موقف شكله النجاح ولكن صورة هذا الموقف فى الصغر والتى جعلت

منه نسخة قريبة منها على نقيض هذا فى شكلها فالموقف الطفلى هو إحباط لرغبة ملحة فى الحصول على المكانة المرموقة من العم التى تشبه وراثته فى ماله .

أما من حيث المضمون فنجد أن مضمون الموقف المباشر للمرض هو نزعة فى الاعتداء على مركز ولى نعمته وهو مديره الذى رفعه وكاد أن يورثه منصبه . فإذا عدنا إلى الموقف الطفلى فنجد الرفض من العم أن يحصل هذا الطفل على بعض مالديه أو ما يستطيع منحه . نحن إذن إزاء موقف مباشر مضمونه العدوان ، وموقف أولى مضمونه الوقوع ضحية العدوان .

ولو عدنا قليلا إلى الجزء السابق الذى بينا فيه ماحدث لهذا الطفل عندما استهدف إلى إنكار عمه له ، فسنجد أن وقوعه ضحية لرفض عمه أدى فى بداية الأمر إلى إثارة غضبه ورغبته العدوانية الشديدة تجاه العم . ولكنه لتعيين نفسه بعمه كبت ذلك النازع العدوانى خشية وقوع مثيل له عليه ولتأنيب نفسه على تلك النوازع المدمرة تجاه العم . وقد أدى هذا الكبت إلى أن اختفى مضمون العدوان ليحل محله شعور بالذنب تحول تدريجياً إلى النسيان والاختفاء عن الشعور . وتعد تلك النقطة أهم ما يحدث فى المرض النفسى . فكبت النوازع فى الطفولة

لا يعنى أنها ولت وذهبت ، بل يعنى أنها اختفت عن الشعور حتى لا تؤلم النفس ولكنها تظل تتحين الفرص لتعود من جديد إلى الشعور . وفى هذه الحالة تعاود الشخص مشاعر الألم والقلق من جديد حتى يعاود كبتها . إن ما يحدث عندما تكبت الرغبات الطفلية المؤلمة هو تحولها إلى مضامين تغزوا مواقف تالية تحاول أن تجد فيها منفذا وتحقيقا .

لقد كبتت إذن تلك الرغبات العدوانية فى مضمونها ، ثم أخذت سبيلها فى الموقف الجديد تريد أن تتحقق من خلاله . وهكذا وقع المريض فريسة لآلام بالشعور بالذنب والقلق من أن يجازيه مديره على رغبته فى إقصائه بالحرمان الذى لاقاه من عمه ، واكتأب لتلك النفس الشريرة التى تقمصته . وأنب نفسه كما لو كان هو العم أو المدير المؤنب .

نحن إذن بإزاء موقف مباشر لا يحمل شكل الموقف الطفلى إلا فى قابليته لأن يفسح المجال للمضمون الطفلى المكبوت أن ينفذ من خلاله . بذلك حصل الموقف المباشر على مضمون غير مباشر مستمد من موقف سابق . بعبارة أخرى لا يحمل الموقف المباشر المؤدى إلى المرض مضمونه الحقيقى ، بل إنه يحمل مضمون موقف آخر له بعض ملامح شوهها كبت أصاب

تطور المفاهيم فى فترة سابقة . لذلك يبدو السلوك مركبا .

موقف جديد يحمل لنا مضمونا واضحا ولكنه يحمل لمن يعيشه مضمونا آخر لا نميزه .

موقف يؤدى شكله إلى مضمون مباشر ، ورغم ذلك نجد مضمونا آخر أكثر بدائية يطرد ذلك المباشر ليحتل مكانه .

ولا شك أننا هنا بإزاء نقطة مهمة وهى شكل الموقف المباشر وعلاقته بالموقف السابق صاحب المضمون الذى يؤدى إلى السلوك المركب . الواقع أن الموقفين يتشابهان فى بدايتهما فقط . فالموقف الطفلى بداية الرغبة كما أن الموقف المباشر بداية رغبة مشابهة . أما نهاية الموقفين فتختلف فى شكلها . فموقف الطفولة ينتهى إلى إحباط الرغبة بينما الموقف المباشر يؤدى إلى تحقيقها لذلك نجد أن مشكلة الميل إلى التعامل مع الشكل والمضمون فى العصاب تختلف بل تنحرف عن محورها .

إن الميل إلى الشكل أو إلى المضمون أمر يستحيل على المناقشة فى العصاب ، بل إن المحور الذى تدور حوله المشكلة هو الانتقال من شكل إلى آخر يربط بينهما مضمون واحد . ويمكن أن نصور الأمر على هذا النحو .

إن عناصر الشبه فى الموقفين تسمح للمضمون القديم أن

يشترك بينهما ليعطيهما معنى واحدا . والعصاب ليس إلا معالجة شكل جديد بمضمون لشكل آخر له به ملامح وقوة جذب خاصة . لذلك يصبح السلوك عصابيا عندما يفتقر الموقف الجديد إلى مضمون ما خاص به ، أو يفقده تحت وطأة الصدمة ، ويغدو الانتقال من شكل إلى آخر أمرا سهلا .

ولكى نضرب لذلك مثلا أبسط وأوضح نعرض الحالة التالية .

طفل فى حوالى سن الخامسة ، سيطر عليه خوف شديد من أن حصانا سيعضه وقبل أن تستحوذ عليه تلك الفكرة بعدة أيام رأى فى الحلم أن أمه قد تركته ، فصحا من نومه مذعوراً لأنه لن يجد من يداعبه . وقد أظهر هذا الطفل فى سن الثالثة اهتماماً ملحوظاً بأعضائه التناسلية الذكرية وأخذ يسأل كل من حوله عما إذا كانت لديهم هم الآخرون أعضاء مثيلة . ووصل إلى نتيجة هامة وهى أن الكائنات الحية لا بد وأن تكون لها أعضاء تناسلية بينما الجمادات كالأثاث لا تتحصل على تلك الخاصية الحيوانية . ثم يتحول إلى نتيجة جديدة وهى أنه كلما كبر حجم الشخص أو الحيوان كلما كان عضوه التناسلى كبيراً مثله . حتى أنه قال يوماً إن أمه لا بد وأن لها عضوا كذلك

الذى للحصان ، والواقع أننا هنا بإزاء مفاهيم ما زالت فى طور التعميم الذى يسمح للأمراض النفسية بالظهور .

وخلال شغفه باكتشافاته تلك ولدت له أخت صغيرة ولاحظ طفلنا ان أخته لم تحصل على عضو كالذى وهبته له الطبيعة ، ولكنه عندما أبدى سخريته منها قال بانها مسكينة لأنها تفتقد الأسنان . لو نظرنا إذن فى تلك السلسلة من الأفكار لوجدناها تأخذ هذه الصورة .

عضو تناسلى صغير	=	فم بدون أسنان
عضو تناسلى كبير	=	فم به أسنان تعض
حصان له عضو كبير	=	حصان يعضه

ولكن ما دخل الأم وذلك الحلم الذى مهد لظهور الخوف من الحصان ؟ الواقع أن هذا الخوف فاجأه يوماً وهو فى نزهة فى الطريق مع مربيته . وألح عليها فى فزع أن تعود به إلى المنزل حيث كانت الأم . وحبها ومداعباتها ، وغيرته من أن تكون أخته تحظى بتلك النعم التى حرم منها . ولكن مشاعر أخرى مناقضة اجتاحته تتلخص فى شعوره بالخجل من رغبته تلك وشعور بالذنب من أنه يريد أن يحرم الآخرين من أمه ليستحوذ عليها لنفسه . لذلك أدى تداخل المشاعر المتناقضة وانتصار

الرغبات المضادة انتصاراً جزئياً — أدى ذلك إلى أن انقلبت قبلة أمه إلى عضة من أمه تأنيباً له على رغباته ولكن مثل ذلك الأمر غير محتمل ، في الوقت نفسه الذى يمكن فيه أن يجد هذا المضمون المقلوب منفذا في شكل آخر وهو الحصان الذى له بالأم شبه معقود سابقاً . لذلك تحول الخوف إلى الحصان . من ذلك يمكن أن نجد أن سلسلة أخرى من التضايف قد انعقدت وهي :

رغبة في قبلة من الأم تنقلب إلى خوف من عضة من الأم .
عضة من الأم ممكن تحويلها إلى عضة من الحصان :

والواقع أن العامل الأساسي وراء كل تلك التحولات هو خوف من الأب الذى له وحده حق تقبيل الأم والتطلع إلى جسدها الذى أثار اهتمام الطفل .

نحن إزاء ميل إلى الانتقال من شكل إلى آخر بمضمون أحدها . ودائماً ما يكون هذا المضمون خاصا بالشكل الأسبق الذى أثاره لدى الشخص نوازع مضادة أدت إلى كبت بعض المشاعر الخطيرة .

إذن فإن المرض النفسي عبارة عن استعمال لمفاهيم تعميمية لم تصل بعد إلى مستوى التخصيص ، وأن استعمال مضمون واحد

لشكلين متشابهين يسهل الانتقال بينهما بنفس المضمون ، فهل معنى هذا أن المرض النفسى تفكير لا يحمل مضموناً ، أم أنه مجرد تمسك بالأشكال دون المضامين ؟

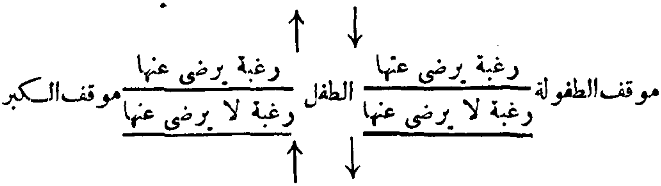
الواقع أننا فى حديثنا عن الانتقال من شكل إلى آخر بمضمون شكل الموقف الأول وضعنا أمامنا أهمية المضمون واضحة ، فمضمون قلق هذا الشاب المريض هو قلق من أن تتحقق رغبته العدوانية تجاه من يحب وهو مديره ، كما أن مضمون خوف طفلنا هو قلب الرغبة فى القبلة إلى نقيضها وطرح ذلك الفعل المخيف على حيوان دون الأم حتى يمكنه أن يعيش مع أمه دون خوف . نحن إذن مجبرون على الحديث عن قابلية الطفل فى مواقفه القديمة للانتقال من الشكل إلى مضمون الموقف . بعبارة أخرى ، مادام المرض النفسى يتكون من الطفولة المبكرة ثم يمتد إلى الرشد فلا محل للكلام عن موقف فى الرشد يؤدى إلى خلل فى التفكير . بل الأصوب أن ننظر إلى خلل التفكير فى الموقف الأول . ففحص قابلية الطفل للانتقال من شكل الموقف إلى مضمونه . فاذا اكتمل لنا تحليل هذا الموقف أصبح من السهل أن نفهم بعمق أكبر كيف يكون حاله عندما ينتقل بمضمون الموقف الطفلى إلى شكل الموقف الجديد .

الانتقال من الشكل إلى المضمون فى المرض النفسى :

لنتناول موقف ذلك الطفل الذى خاف الحصان أن يعضه . ما هو الموقف المباشر الذى عاشه من حيث شكله ومن حيث مضمونه ؟ وكيف كانت قدرته على الانتقال من الشكل إلى المضمون ؟

لنحلل الموقف أولا من حيث الشكل . كان هذا الطفل هو الوحيد بالنسبة إلى والديه . وظل كذلك حتى تلك السنين التى بدأ يهتم فيه بعلامة جنسية واختلافها عن علامات الجنس الآخر . ولما ولدت له أخته وبدأت تشاركه فى حب أمه له ثارت فى نفسه الغيرة . ونعنى بالغيرة رغبته فى أن يحل محل الأخت . والواقع أن هذا الشعور شعور مرير بالنسبة إلى الطفل لأن عليه أن يفاضل بين أن يتمتع بميزات كبيرة مضحيا بميزات الصغر أو بالعكس . وفى مفاضلته هذه — وهى عادة تتم دون أن يعمل فيها فكره تماما بل دون أن يعى قدراً كبيراً منها يحاول أن يقيم تجاه كل رغبة تلك الرغبة المضادة لها حتى يأمن سرعة الحكم ، فمثلا شعوره بالميزات التى تتمتع بها أخته نتيجة لعجزها ورغبته فى أن يحظى بما تحظى هى به ، يجعله يقيم تجاه ذلك شعورا بميزات

استقلاله وذكورته وقدرته . كما أن ملاحظته لافتقاد أخته لأسنانها مما يبرر للأم إطعامها عن طريق الثدى يجعله يقيم للأسنان أهمية بالغة ويفخر بحصوله على ما يغنيه عن أمه . وتتصارع تلك القوى المتعارضة فى نفسه لتجعل الموقف صراعا بين رغبة ونقيضها وبين حاجات ورفضها . وكانت تلك الرغبات فى الواقع لدى هذا الطفل من تلك الطبيعة ، رغبات متصارعة . فالموقف من حيث شكله له صفة الصراع ، وله صفة القوى المتوازنة إذا جذبته يمينا سرعان ما سيحدث رد الفعل لينجذب يسارا . إن أبسط تحليل لهذا الموقف يمكن توضيحه بالرسم التالى :



إن هناك عديدا من القوى المتعادلة والمتنافرة التى تجمد سلوك الطفل فلا يستطيع أن يتحرك إلى الطفولة أو إلى الكبر .

لننظر الآن إلى مضمون الموقف . كان مضمون الموقف لهذا الطفل ظاهريا يتصل مباشرة بموقف الصراع ذاته . هل يحتفظ

بميزات كبره وجنسه مضحياً بميزات صغر أخته وطبيعة جنسها ، أم يرجح الجانب الآخر ؟ وقد دفعه شكل الموقف الصراعى إلى أن يجعل لكل جانب مجموعة من الخواص . فالصغر يعنى الحب والقبلة والمداعبة والحصول على الأم دون منازع ، كما يعنى فقدان الرجولة والاستقلال والحصول على استقلال الأب الذى بدأ الطفل يعجب به . وكان الكبر على نقيض ذلك . وأدى ظهور هذه المفاهيم وتلك المضامين فى نطاق الشكل الصراعى الذى كان عليه الموقف إلى أن أصبح الانتقال من حالة إلى أخرى يعنى التضحية . وتحول الموقف بحيث أصبح حل الصراع يعنى التخلى عن مجموعة من الرغبات المراد تحقيقها ، كما كان يؤدى إلى التمسك بغيرها بما فى تحقيقها من حرمان . وغدا الشكل وقد أصبح له مضمون صراعى هو الآخر بحيث جعل الأمر معقداً للطفل . وهنا يمكن أن نتوقف قليلا عن تحليل — مضمون الموقف لنكتشف خاصية مهمة فى المواقف التى تؤدى إلى العصاب .

إن المواقف التى تؤدى إلى العصاب والمرض النفسى مواقف صراعية بطبيعتها تتنازع الفرد فيها قوى متعارضة . وحتى لا يقضى الشخص بأمر حاسم بصددها يستعين على مجموعة من الرغبات

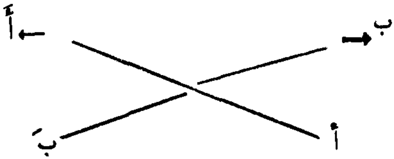
بالرغبات الأخرى ليبقى عليها حية نشيطة دون أن يفقد أيا منها . ويصبح عليه أن يستعين بمضمون جانب ليخلق به الشكل المضاد بينما يجعل للشكل المناقض مضمون الشكل الآخر للموقف وفى طفلنا هذا يتمثل له موقف يجعل للشكل المناقض مضمون الشكل الآخر للموقف . فموقف الصغر شكلا مناقضا لموقف الكبر ولكنه يستعير الأول مضمون الآخر . ونتيجة لذلك يظهر الوجدان المؤلم والانفعال الصاخب . فتحقيق رغبته فى القبلة تنقلب إلى الحصول على عضة ، ورغبته فى الاستقلال والخروج مع مربيته ينقلب إلى ألم ليعود أمه . إن مضمون كل موقف هو فى الواقع مضمون مستعار من الموقف المضاد ، وهكذا تنقلب الآية فيصبح إشباع أى رغبة مؤديا إلى ألم بدلا من الحصول على لذة .

إلا أن الموقف الصراعى بما فيه من ألم مستمر يضيق بالفرد فيدفعه إلى إيجاد حلول له ينتهى بها منه . أنه يبقى الموقف الصراعى لفترة حتى يكتشف الحل . وفى مثالنا هذا نجد أن عناصر الموقف الصراعى لن تنتهى لدى الطفل إلا بكبت إحدى النزعات وإبقاء الأخرى ، على أساس قانون اقتصادى بحت ، فالرغبة التى تؤدى إلى أكبر قدر من الألم هى الأجدر بالكبت والإبعاد . ولكننا

تبينا فى الموقف الصراعى أن كل رغبة تحمل شكلا خاصا ومضمون الرغبة الأخرى ، مما يجعل كبت إحداها يعد كبتا للأخرى .
وحتى نبين ذلك من مثالنا السابق نصوره بهذا الشكل .

مضمون الرغبة	شكل الرغبة
أَ ـ القبلة والحصول على ميزات الاعتماد	أ ـ رغبة فى الحب (الصغر)
بَ ـ رفض القبلة والحصول على ميزات الرجولة	ب ـ رغبة فى الاستقلال (الكبر)

ثم تغير الوضع ليشكل الموقف الصراعى على هذا النحو :



من هذا نجد أن كبت أ يعنى إبقاء ب مع أَ ، كما أن كبت ب يعنى إبقاء أ مع بَ .
لذلك يؤدى الكبت إلى ذلك المركب السلوكى المعقد الذى وصفناه فيما سبق بأنه سلوك غير مفهوم . ورغم أن ذلك السلوك المعقد يؤدى بالشخص إلى المرض النفسى وما به من ألم وشقاء إلا أنه فى الواقع ترضية وحل وسط لمشكلة الرغبات المتصارعة وعدم التخلى عنها جميعا . إن الحل السوى للموقف الصراعى يتمثل

فى تعطيل الشخص مرحلة انتقال مضمون رغبة إلى مكان الأخرى حتى يمكنه أن يعالج كل واحدة معالجة مستقلة . ومثل ذلك التعطل يؤدى إلى ما يسمى بالكبت الناجح لأنه سيلغى من الموقف رغبة لها شكل خاص مع مضمونها الخاص ليبقى الأخرى بمضمونها . وعادة بل ودائما مالا يتأتى لنا ذلك إن لم تكن قدرتنا على إنماء المفاهيم قد تطورت حتى تخصص وتعمم بدلا من أن نعمم فقط . فالتعميم فى الفهم يتيح للمضامين المتعارضة أن تتبادل وتحمل فى الأشكال المختلفة . وإذا أتيح لنا أن نستعمل مفاهيم تخصيصية تعميمية فإننا لن نقع فى عملية الإبدال ، بل سنوازن الموقف لنكبت إحدى الرغبتين دون مساس بالأخرى ، وعادة ما يتمشى اختيار الرغبة المكبوتة بناء على تقديرنا للواقع والظروف الاجتماعية التى تغرينا بالتخلى عن الرغبات البدائية والأكثر فجاجة .

الوجدان فى المرض النفسى :

فيما سبق قلنا إن هناك تداخلا بين مواقف الطفولة وبين مواقف الرشد مما يجعل سلوك المريض مركبا وتفكيره غير مفهوم . والسؤال المباشر نتيجة لهذا الوضع هو : لماذا لا يستقل

الشكل الجديد بمضمونه الخاص بدلا من أن يحصل على مضمونه من موقف طفلى له نفس الشكل تقريبا ؟

لنعد مرة أخرى إلى موضوع الوجدان والتفكير فنترسم ما فيه من نقاط تفيدنا فى الأجابة .

لقد أوضحنا أن التفكير يمنع الوجدان من أن يتسرب إلى أحكامنا على عالمنا . وقلنا إن الوجدان السوى هو الذى يتصل بشكل ومضمون الموقف . أما الوجدان المفسد للتفكير فهو لا ينسجم مع شكل له مضمون يناسبه . هذه النقاط تسمح لنا بفهم تلك الصلة وذلك التدخل الذى قد ينشأ بين مواقف الطفولة والرشد فيعطينا صيغة المرض النفسى .

نضيف إلى ماسبق أمرا آخر كشف عنه التحليل النفسى . إن الإنسان منذ نشاته يتضمن اتجاهين نفسيين واضحين تتصارعان فيه فتكتب لأحدهما الغلبة يوما ويوما تكون للأخرى . فعندما يرضى الإنسان عن عالمه ويجد فيه إشباعا لرغباته يتغلب اتجاه الحب والرضى . ويؤدى ذلك إلى أن يدفع الإنسان إلى من أشبعه وما أشبعه طاقة من حبه الذاتى . أما إذا لقى الإنسان إحباطا وحرمانا فإنه يعطل الحب ليتغلب الكره والبغض والعدوان يتجه بهم إلى من حرمه وما حرمه . لذلك نجد أن انفعالاتنا هى

تفرعات من الحب والعدوان . فمن الحب تظهر انفعالات الراحة والاطمئنان والمودة والميل ، ومن العدوان يخرج الضيق والشك والكره والنفور .

تلك الخاصية التي تميز وجداناتنا تلعب دورا هاما في المرض النفسي والمرض العقلي . ففي الطفولة وقبل أن يتمكن التفكير من إقامة علاقتنا الرمزية بالعالم وأن يجعلنا نتعامل مع الشكل والمضمون يقوم الوجدان بدور أساسي بديلا عن التفكير . فالمواقف التي يتعرض لها الطفل تكون إما محبطة أو مشبعة ولا يستطيع الطفل أن يدرك تفاصيل المواقف نظراً لعدم نماء تفكيره الرمزي لذلك يحل الوجدان في شكل الموقف ليعطيه مضموناً . . فالوجدانات هي مضامين أشكال المواقف الطفلية . والسبب في ذلك أن الطفل عندما لا يجد معنى لما يراه أو يخبره ويتعرض له فإنه يفسر الأمور بحسب ما تحمله له من حب أو عدوان بل إننا وفي أحسن ظروف تفكيرنا واستخلاصنا — للمضامين في البلوغ نظل ندرك المواقف بما تحمله لنا من إشباع أو حرمان .

من ذلك يمكن أن نستنتج — وهو ما تحقق في محاولات العلاج التحليلي — أن السلوك المركب الذي نطلق عليه لفظ

المرض النفسى « العصاب » إنما ينتج من تداخل موقفين على شبه يبعض يحمل الأول مضمونا وجدانيا يدخل إلى الموقف الجديد . بعبارة ثانية . إن ما يجعل الموقف الجديد لا يستقل بمضمونه الخاص ويحمل المضمون الطفلى هو الوجدان الذى لم يسمح للطفل أن يفكر فى الموقف الذى تعرض له .

نقطة أخرى تنقصنا لنجيب عن سؤالنا . فى أحيان كثيرة لا يتحمل الطفل أن يشعر بالحب خالصا أو بالكره خالصا تجاه موقف يتعرض له . ويعود السبب فى ذلك إلى أن الموضوع الذى يتعلق به قد يحمل من الصفات ما يثير التناقض فى مشاعره فالأب للطفل إنسان يحبه ويقدره ولكنه فى نفس الوقت يمنعه عن بعض الرغبات ويخافه مما يثير فيه نوازع كراهية . من ذلك تنبع لدى الطفل مجموعة من الوجدانات المزيجة التى تحمل الحب والكره معا . وليس ذلك بمستغرب فى حياتنا السوية . فكثيراً ما نحاول التعبير عن إعجابنا بشيء بكلمات السباب والقذف . بل كثيراً ما نجد الحب والكره يمتزجان فى تصوراتنا كما هو واضح من قولنا : مات فى حبها ، حلوة لدرجة أن تؤكل .

أثر التفكير الطفلى على المرض النفسى :

لنعيد السؤال من جديد : لماذا لا يستقل الموقف الجديد

بمضمونه الخاص عند العصابيين ؟ إن عدم استقلال المواقف بمضمون متسق معها لدى هؤلاء المرضى يعود إلى أن المواقف الطفلية التى كان مضمونها وجدانا طاغيا شمل تفكير الطفل كله يأسر الإنسان فيه على مر السنين . ولذلك عندما يتعرض لمواقف مشابهة يندفع المضمون القديم إلى الموقف الجديد . يزيد على ذلك أنه فى حالات المصاب والتى يكون لدى المريض فيها قدرة على التفكير باقية ، يواجه الوجدان القديم وجدانا نابعا من حقيقة الموقف الجديد فيمتزجا ليكون صراعا وجدانيا يطمس معالم كل منهما ويعطينا وجدانا مركبا ويمكن أن نلحظ تلك الخاصية فيما يعلق الناس باسم القلق. فالمريض قبل استفحال مرضه يشعر بالقلق الذى يمثل صدام الوجدانات المتعارضة وبعد فترة يظهر المرض أو السلوك المركب الذى قد يأخذ صورة الحزن عند النجاح « استبدال الشعور بنقيضه » أو الخوف من الفشل « توقع العقاب عند تحقيق الرغبات » .

إن المرض النفسى أو السلوك المركب من حيث هو تفكير يسمح للوجدان أن ينفذ إلى علاقة الشخص بواقعه بصورة مركبة أيضا . فافتقاد الشكل إلى المضمون يسمح بوجدانيين متعارضين ، أن يمتزجا ويتداخلا ليكونا رصيد الإنسان

فى التعامل مع واقعه . ويؤدى ذلك الامتزاج بين الوجدانات إلى عجز الشخص عن معاودة التفكير والقياس ليفرق بين الموقف المعاش والموقف الطفلى الذى اضطرب فيه تفكيره . وبذلك يلغى الشخص مضمون الموقف المعاش أحياناً ليجعل ذلك المزيج المغرب من الوجدانات هو المضمون . فريضنا الشاب وقع فى حالة القلق والاكتئاب مؤخرا ، نظراً إلى أن مفهوماته المعممة منذ الطفولة أتاحت للموقف الطفلى أن يشكل الموقف المعاش . ولكنه وقد كبت فى الطفولة جانبا من الموقف وأبقى الحب والكره فى مزيج حول ذلك المزيج إلى الموقف الجديد المعارض وجعل منه مضمونه . وأصبح حب رئيسه له هو المؤدى إلى الكره والعدوان . وظل هذا الشاب يميل إلى التعامل مع الشكل الجديد وحده دون أن يسعى إلى كشف مضمونه الخاص — وأصبح القلق هو مضمون ذلك الشكل . وبذلك استحال عليه أن يتعامل مع الشكل ومضمونه . بل وافتقد القدرة على الانتقال من الشكل إلى مضمونه الحقيقى نظراً إلى تسرب الوجدان المركب إلى الموقف مما جعل السلوك بدوره على هذا النحو من التركيب .

تفكير المريض وتفكير السوى

الفرق إذن بين السواء والمرض هو فرق فى استقلال الشكل بمضمونه المناسب بوجدانه الحقيقى . فذلك الشاب بعد سوائه وشفائه أمكنه أن يسعد بترقيته وأن يعود إلى سابق المودة مع رئيسه ويبادله الحب والتقدير . أى أنه احتفظ بشكل الموقف المعاش بمضمونه المباشر وهو الترقية وأضفى على الموقف بشكله ومضمونه معا وجدانا مناسبا وهو الحب والمودة وسعد بالحب والمودة .

لقد تعرضنا لفكرة التداخل بين الوجدانات المركبة والمواقف المركبة ، فكيف لنا إذن أن نميز الأمراض النفسية العصابية حسب تلك الفكرة ، بعبارة أخرى هل هناك أنماطا من ذلك التداخل وذلك التركيب تميز لنا أنواعا متباينة من المرض العصابى ؟

لقد قسمنا المواقف إلى طفلية يحدث فيها افتقاد الشكل إلى مضمونه الحقيقى وقسمنا الوجدانات إلى حب وكره وعدوان . وقلنا إن امتزاجا بين المواقف قد يحدث بناء على التشابه بين الأشكال دون المضمونات نظراً لتعطل نمو مفاهيم التخصص . وقلنا بأن امتزاجا قد يحدث بين وجدانات الحب والكره

بسبب عدم حصول الشخص على حب مقابل لما يمنحه أو خوفه من أن يرتد كره مقابل لما يوجهه . ثم تعرضنا لانتقال الوجدان ليصبح مضمون المواقف الجديدة المعاشة . ويمكننا أن نشاهد الاحتمالات المختلفة لتركيب تلك العناصر لتعطينا صورتين مرضيتين عامتين إحداهما تتفرع إلى فرعين .

أنماط المرض النفسى :

الاحتمال الأول وهو أقربها إلى ملاحظتنا وأكثرها تواردا فى المجتمع وهو الخاص بحلول وجدان مركب من الحب والكره كمضمون لموقف مركب من شكلين اختفى مضمونهما الأصلى . ويطلق على هذا النوع من المرض لفظ الهستيريا . وتنقسم الهستيريا إلى فرعين الأول هو المخافات المرضية الهستيرية والآخر هو الهستيريا التحولية . وقد ضربنا مثلا بالمخافات المرضية الهستيرية بحالة الطفل الذى نمى لديه خوف من أن يعضه حصان . ويمكن أن نصف اضطراب التفكير فى هذه الحالات بالمضمون الخاص بالموقف الطفلى المبكر الذى أصبح يتضمن وجدانا مركبا من الحب والكره تجاه موضوع ما ظل كما هو رصيد مواقف تالية معاشة بينما تغير شكل الموقف السابق عما فى الموقف المعاش .

فالقلق تجاه الأم وهو مزيج من حب وكره دفع الطفل إلى ربطه كمضمون بموقفه من الحصان . بعبارة أخرى المخافات المرضية الهستيرية تتم عن طريق مركب وجدانى يتحول عن موضوعه الأصلى إلى آخر يسمح بأن يستغل لإشباع ذلك المركب الوجدانى .

أما فى الهستيريا التحولية فنجد أن الأمر على غير ذلك ، فالذى يتغير هو الوجدان المركب أما الموقف فيبقى كما هو . ويكاد موقف الشاب أن يبرز لنا ذلك الجانب بوضوح . فالموقف المركب خاص بتطلعه للحلول محل آخر مما يؤتيه بالسعادة . ولكنها ونتيجة للعملية النفسية التى سبق إيضاحها تحولت السعادة إلى شقاء ولتصبح وجدان الموقف المعاش الشبيه بالسابق الطفلى . بعبارة أخرى تبقى عناصر الموقف على ما كانت عليه ويتغير المضمون الانفعالى المركب ، وعادة ما يصبح جسد المريض فى هذه الحالات ميدانا لصراعه وسلوكه المركب . فبعض حالات الشلل لأعضاء الجسم أو ما يطرأ على وظيفة تلك الأعضاء تدل على أن الصراع قد حل بها ليعبر عن نفسه . فذلك الشخص إذا أحس بظلم شديد يقع عليه انشل ذراعه ، يشير إلى أن رغبته فى رد العدوان بمثله — والتى تؤتيه ألما نفسيا قد تعطلت . وعادة ما تكون تلك الصراعات الهستيرية التحولية والمخافات المرضية

الهستيرية نتيجة لتطلعات جنسية طفلية يحرمها الطفل على نفسه لينشأ الموقف الصراعى . لذلك تعود الأمراض الهستيرية عامة إلى المرحلة التى تسمى بالمرحلة الأوديبية وتتميز تلك المرحلة « من سن ٣ — ٦ » بظهور ميل كل جنس لاكتساب صفات جنسه الذكرى أو الأنثوى .

أما الاحتمال الثانى ، وهو أقل تواردا وأندر حدوثا ، فهو احتمال يحدث فى المرحلة التى تسبق مرحلة الأوديب . وتتميز تلك المرحلة بعدم أمكان امتزاج الوجدانات . فكل وجدان فى تلك المرحلة (سن ٢ — ٣) يطغى منفرداً على علاقة الشخص بواقعه حسب حالة تلك العلاقة . فاذا رضى الطفل عمن يتعامل معهم أحبهم حباً مفرطاً حتى تسوء تلك العلاقة فيختفى الحب دفعة واحدة ليظهر الكره والعدوان وكأن لم يكن هناك حب إطلاقا ، لذلك تتميز صراعات هذه المرحلة واحتمالات اضطراب التفكير فيها بالحدة والشدة . بل لقد اطلق على عصاب تلك المرحلة اسماً هو فى الحقيقة وصف لها . فالوجدان الذى يسيطر على الطفل فى تلك المرحلة وعلى المريض فيما بعد يستحوذ عليه ويمتلكه امتلاكا ، ولذلك يطلق على عصاب تلك المرحلة اسم الحواز ، أو الحواز القهرى . وفى هذا العصاب نجد أن كل

سلوك يمتلك وجدانا خاصاً ولكنه لا يدوم إذ لا بد وأن ينتهى ليحل محله سلوك آخر بوجدانه . وفى تلك الدورة المزدوجة معاً تتكون صورة المرض فالعصابى الذى تحوزه فكرة بأنه متسخ اليدين يتجه إلى غسلها . وبعد غسلها ضرورة لالغاء القذارة وسبيلا إلى اتساخها من جديد . والواقع أن لذلك الانفصال فى الوجدان وعدم قابلية الوجدانات إلى الإمتزاج يرتبط باستحالة ربط الشخص بين شكل ومضمون موقفيه المتتاليين ليدرك أنهما موقف واحد . فالحب الشديد الذى يتلوه كره شديد إنما يكونا تلك الوحدة التى نراها فى الهستيريا فى انفعال واحد وهو القلق . أما فى الحواز فكل على حدة يحول دون إدراك الشخص أن هناك مضمونا واحداً يمكنه أن يجمع شكلى الموقفين المتعاقبين ليصبحا كيانا لرغبة معينة . ويمكن أن نضرب لذلك مثالا بصراف إحدى الشركات استحوذت عليه فكرة مؤداها أنه يخطىء فى عد ما يحصله من نقود . وأصبح يكرر العملية بصورة لم يعد يحتملها عقليا ولم يعد يستطيع معها القيام بعمله على الوجه الضرورى . فإذا اكتشفنا أن لديه رغبة يقاومها فى سرقة بعض هذا المال لنفسه ، أمكننا أن نكشف طبيعة التفكير فى عصاب الحواز . إن وجدان العدوان على مال

صاحب العمل منفصل عن وجدان الإخلاص لهذا الرجل. وقد أدى ذلك الانفصال إلى إنفصال آخر من عملية عد النقود بوصفها تمثيلا للإخلاص وعملية الشك فى سلامة العدد التى تمثل الشعور بأن السرقة قد تمت فعلا من ذلك نجد ان الموقف الأول بشكله مع الموقف الثانى بشكله يحملان مضموناً — واحدا وهو « أنا لا أرغب فى السرقة » . ولم يمكن لهذا المضمون أن يجمع الشكلين معا لانفصال الوجدانين الخاصين بهما .

التفكير عند المرضى العقليين « الذهانيين »

لقد لاحظنا أن المرض النفسى « العصاب » إنما ينتج من سيادة قدر معين من الوجدانات المركبة على التفكير . ولاحظنا كذلك أن العصاب لا يفقد المريض كل عقله بل يورده إلى حدود الجنون دون الدفع به كلية فى هاويته . ولنا أن نتساءل : هل الجنون إذا — أو يسميه المتخصصون ذهانا — نتيجة سيطرة أقوى للوجدانات على التفكير بحيث تفقد المريض كل عقله وتورده هاوية الجنون ؟

من اليسير أن نعتبر الإجابة على هذا السؤال أمرا لا مبرر له لأنه إذا كان قدرا معينا من الوجدان يفسد التفكير فإن ذهاب

العقل لابد وأن ينتج عن قدر أكبر من الوجدان . ولكننا إذا تذكرنا ماسبق بخصوص علاقة الوجدان بالتفكير لتحفظنا قليلا في هذا الحكم . لقد لاحظنا أن المرض النفسى والعقلى ليسا لسيادة الوجدان على التفكير بل لتداخل الوجدانات المركبة فيه . لذلك يحسن أن نعتبر المرض العقلى « الذهان » نتيجة لتدخل وجدانات أكثر شذوذا وأشد غرابة وأعقد تركيبا من تلك التى نجدها فى العصاب ولا بد إذا أردنا أن نكشف خصائص التفكير لدى الذهانيين من أن نتعرض لطبيعة الرغبات التى تثير تلك الوجدانات الشاذة والغريبة التى تذهب بالعقل وتدمر التفكير .

عندما تعرضنا للتطور لاحظنا أن مطالب الطفل وحاجاته تكون فى البداية بسيطة هى الشبع بعد الجوع ، ثم تتعدد فتضعف مع تمايزها وكثرتها ولا شك أن إحباط رغبة تكون وحيدة لدى الطفل أشد خطرا من إحباط رغبة من بين رغبات أخرى تؤتيه إشباعا معوضا . لذلك يمكن أن نعتبر الرغبات التى يؤدى إحباطها إلى الذهان إنها تلك التى نشأت مبكرا فى حياة الطفل . بالأضافة إلى ذلك سنتعرض لأمر آخر يتصل بتلك الرغبات المبكرة ، هو طبيعة شعور الطفل برغبته فى بداية عمره . لننظر

إلى طفل فى سن السنة متعلق بمربيته يقضى بين ذراعيها معظم يومه لننظر إليه وهو يشاهدها تتألم من إهانة لحقتها أوضرر نالها . سنجد أن الطفل بمجرد أن تبكى مربيته ينخرط هو أيضا فى البكاء وكأن ألمها قد لحقه هو أيضا . هذه الخاصية تميز الأطفال بدرجات متفاوتة حتى سن الثانية أو ما بعدها بقليل . وتشير إلى أن الوليد لا يعيش عالما خاصا به ورغبات ملكا له ، بل يعيش عالم من يحبهم ويتعلق بهم . فرغبات الآخرين هى رغباته وموضوعاتها هى موضوعاته ووجداناته مشاركة بينه وبينهم . ولا شك أنه عندما يتنبه مع الأيام أن ذلك غير حقيقى ويأخذ فى الاستقلال بذاته تدريجيا سيقع فى حيرة . كيف يكبت رغبة يشاركه فيها من يحب دون أن يكبت أيضا شعوره بذلك المحب .

الأمر يبدو معقدا .. لنعد إلى طفل فى صراع حول رغبته فى الرضاعة وأصرار الأم على فطامه لنتحقق من صحة ما نقول . أعتاد الطفل أن يجد ذلك الثدى الرحيم المريح له كلما طلبه . وأصبحت رغبته هى الثدى كمصدر للطعام وللحب والحنان . وأقام مع أمه حبا يعتقد أن أمه أيضا تشعر به تجاهه . وفجأة تمنعه أمه عن الثدى ولا تلبى طلبه . وهنا يشتط فى غضبه على من يحب ولا يتصور أنها نفس الشخص . إنه يحبها ويرغب فيها

أما تلك التى تريد حرمانه فهى أم أخرى لا يرغب فيها . وبذلك يقوم بكبت واحدة منهما بكل ما يرتبط بها من رغبة ووجدان وموضوع ، ويبقى على الأخرى برغبته فيها . ويعنى ذلك انه قد كبت رغبته بوجدان وموضوع وبمن يمثلها فى الواقع مما يجعل الكبت فى المراحل المبكرة من التطور كبتا يقع على الأمور بواقعها المادى أيضا أليس ذلك أخطر شأنا من كبت يصيب رغباتنا فى الواقع دون أن يلغى هذا الواقع برمته ؟

قطعا هو أخطر وهو الذى يؤدى إلى غياب العقل كلية .

ولنبرز الأمر سنتناول بعض أعراض الجنون لنبين فيها أن الكبت يصيب إدراك المريض لواقعه بالأضافة إلى رغبته ووجدانه مما يؤدى إلى خلل شديد فى التفكير . مريض يجلس أمام باب يفتح ويقفل فى حركة دائمة فإذا به يرتاع فجأة ويقول أنه يخاف أن يأكله الباب . لقد أدرك الباب وكأنه يفتح ويقفل فانطلق وجدانه المكبوت ليشوه الواقع ويصوره تصويرا مخيفا ومفزعا .

ومريض آخر يسمع أصواتا تناديه بأن يتخلص من أمه لأنها شريرة تدبر له مؤامرة لتودى به . ثم يتبين أن تلك المشاعر التى نسبها إلى الأم هى مشاعره هو والتى كبتها منذ البداية عندما صور له خياله الطفل أن حرمانه من الثدى كان

مؤامرة ضده . ولكنه لم يعد يحتمل أن يتضمن تلك المشاعر تجاه أمه التي يحبها فخيل إليه أن هناك من يناديه ويبصره بالحال ويهمس في أذنه بسر هو في حقيقته رغبته المكبوته .

ومريضة ثالثة عاشت في عزلة بعد أن تزوجت أختها الصغرى ولم يعد يؤنس وحشتها في عزلتها إلا كلب صغير ترعاه رعايتها لأختها . وفي يوم اختفى الكلب وترك المريضة في حزن شديد وألم لا يحتمل . وتطور ألمها ليصبح تأنيبا لنفسها على جرم ارتكبته تستحق عليه أن تطرد إلى الطريق لتعاني الجوع والتشرد . ونجد أن تلك المريضة في رعايتها لأختها ولكلبها إنما كانت تغالب كرها شديدا تجاه من تضحي من أجلهم وتفني شبابها في خدمتهم ليتركوها بعد ذلك . وعندما تحقق حدسها وتركت أختها ومن بعدها كلبها أنبت نفسها على كرهها الذي كبتته والذي تصورت أنه هو الذي نفرمنها من أحبوها وتصورت أن مصيرها إلى الطريق لتعاني الجوع والتشرد نظيرجرمها الذي اقترفته . ويمكن أن نلاحظ هنا أن العقاب الذي تصورته هذه المريضة له نفس الصورة التي يمكن أن يكون عليها حال كلبها .. ضالا جائعا شريدا

الواقع أن الذهان هو تعطل لكل تفكير ، ولا يصل فيه

التفكير إلى تلك المستويات التى تسمح للشخص أن يقيم مفاهيم ويتعامل بها . فاختفاء الواقع نتيجة للكبت المبكر للرغبات لا يتيح للمفاهيم أن تنمو وتتطور . إنه يقف بها عند مستوى عيانى بحيث تستقل الأمور عن بعضها ولا تندمج فى كليات وتتسرب إليها وجدانات شديدة البدائية فيتحول عالم المذهون إلى عالم غريب تتحقق فيه كل رغباته التى كبتها مما يجعله فى فزع لا يسمح له بالتفكير . ومع ذلك نراه يحاول جاهدا أن يفهم ما يدور حوله حسب قوانين غريبة لا تسمح له أن يحقق توافقا مع العالم . إن عجزه عن تعامل يتوافق مع العالم يجعله يغير من العالم ليخلق منه مجالا يتناسب مع إمكانياته هو .

لا يكفى أن نصوغ الأمر على هذا النحو ، بل يجب أن نعرف شيئا عن تلك القوانين التى تحرمه من التوافق فى ضوء خصائص التفكير السوى الثلاث. إن تعطل الذهانى عندالمراحل الأولى من النمو وكبته لقدر كبير من الواقع وصراعه مع رغباته البدائية ، يجعله بعيدا عن تجريد الأمور من ماديتها . فالتجريد يعني أن الشخص قادر على أن ينظر إلى الأمور فى ذاتها . أما الذهانى فعيانى فى تفكيره ولا يقيمه على أسس من المفاهيم والعيانية هى فى الحقيقة تعامل مع الأمور بما تحمله للذات من

فائدة ومعنى خاص ، وما يمكن أن يستفاد منها فائدة مباشرة . بعبارة مجملة لا يتمكن الذهانى من إقامة مفاهيم مجردة لأن مفاهيمه مثقلة بوجداناته العنيفة مما يجعلها لا تتصل بالواقع اتصالا يتيح له أن يختبره ويفكر فيه. فالأشياء للذهانى إما أن تكون خطرة تهدده وإما أن تكون كريهة يعافها ، ولا يمكن أن تكون مجرد أشياء لا تحمل معنى خاصا له .

لذلك لا يكون لتلك المفاهيم شكل ومضمون منفصلان . فالباب الذى يفتح ويقفل لا شكل له . بل هو مضمون خطر . والكلب الضال ليس كلبا قد هرب ، بل هو ممثل لمشاعر دفينة تعانى منها سيدته . إن مضمون الأمور لدى الذهانى هو مضمون رغباته والذى يشكل له شكل العالم وتفاصيله . لذلك نجد أن الأشياء الواقعية لديه لا تحصل على شكل خاص مادامت قابلة لأن تحمل مضمونا واحدا . الفم والباب شيء واحد ما داما يفتحان ويقفلان . الكلب والأخت صنوان ما داما قد تركا سيدتهما فى وحدة تعانى فيها مرارة الفراق .

من هذا نجد أن مجال انتقال الذهانى بين الشكل والمضمون ضيق إن وجد . فالشكل لديه هو المضمون والمضمون هو الشكل وكل ما يمكن أن يحدث بصدد الانتقال بينهما لايخرج عن كونه

انتقالا من رغبة الذهانى العارمة إلى الموضوع الذى اختاره ليمثل تلك الرغبة . فالذهانى الذى يدعى أنه ملك الملوك لا يبرح نطاق اعتقاده هذا إلا فى حدود ضيقة تجعله يتوج رأسه بريش ملون أو أن يأخذ هيئة المتعاظم ظانا أن ذلك التعاظم أو هذا التاج المزيف كاف لأن يحقق له رغبته فى ملك الملوك .

صلة بين السواء والمرض هى الحلم

الإنسان إذاً لا يكف عن التفكير . يفكر وهو مستيقظ ويفكر وهو نائم يفكر بعالمه وهو سوى ، ويفكر بوجداناته إذا كان مريضا . والفرق بين المريض والسوى جلى واضح لنا ، ولكنه فرق واه غير مميز ذلك التميز الجوهرى : فالمريض يحلم كما يحلم السوى أيضا . والسوى فى حلمه يشتط فى تفكيره إلى حد الجنون . أمعنى هذا أن الأسوياء يحملون فى نفوسهم عناصر المرض والجنون ؟ أمعنى هذا أننا عقلاء مؤقتون ؟ أيدل ذلك على أن هناك صلة بين السوى والجنون ؟ أتشير الأحلام على أن الإنسان لم يتخلص تماماً من بذور جنونه وأنها — أى أحلامه — دليل على وجود قوة قائمة تهدده أو تجذبه أثناء الليل إلى مضارب المرض ؟

نعم ... إن أحلامنا ضرب من المرض النفسي والعقلي الذى نعيشه فترة الليل حتى لا نعيشه فى نهارنا فنشقى به . لا يمكن لتفكير مهما نضح أن يشبع للإنسان كل رغباته . ولا يمكن لكبت مهما نجح أن يحكم الرقابة على نزعات طفلية بقيت تلح فى الظهور . ولا يتأتى لإنسان أن يعيش فى وئام تام مع عالمه مهما كان عالمه كله يسير وقدرته تفوق المعقول . لذلك تبقى لدينا جميعاً جوانب لا تجد فى التفكير الرمزى سبيلا للظهور ، فتتوارى أثناء النهار حتى يدركها الليل فتجد فى الحلم ووسائله الأربع فى التعبير وسطاً سهلا تفصح بها عن نفسها وتشبع حاجتها فوسائل الحلم الأربع وهى تصوير الأفكار والنقل والتكثيف والرمز لها طبيعة التفكير لدى المرضى النفسيين . ولننظر فى كل واحدة على حدة لنكشف الصلة بين السواء والمرض من خلال الحلم .

أن تصوير الأفكار ونقل المجرد من الأمور إلى صور عيانية نراه فى الذهان بوضوح . فالذهانى ينقل رغبته فى الإلتهام إلى العالم الخارجي فيصبح كل شيء يقفل ويفتح بديلا للفم الذى يلتهم . ولا شك أننا إذا أردنا أن نعبر عن عالم مسعور نعيشه ما وجدنا صورة نحلم بها فتنقل تلك الفكرة بأمانة غير فتحات

تطوى ما يمر بها فتخفيه وكأننا فى مجال يلتهم ولا يشبع .

أما فى النقل فنجد ذلك الذهان والعصاب معا . ففى العصاب يسقط الشخص رغباته على الآخر حتى لا يتهم نفسه بأنه صاحبها . وفى الذهان وجدنا أن هناك إناسا ربما اسقطوا مشاعرهم على الآخرين وابقوا تعلقهم بمضمون تلك المشاعر لأنفسهم وهذا ما نراه من حيلة النقل فى الحلم حيث يحلم النائم بأن شخصا يمنحه هدية توجب السرور ولا تنبع إلا من محب بينما مانح الهدية فى نكد وغم .. فهو ينقل شعوره بعدم السرور على صاحب الهدية الذى لا بد وأن يكون مسرورا وإلا ما تقدم بهديته .

وسبق أن لاحظنا أن الطفل فى بداية حياته إنما يخلط بين أمه المحبة وأمه المحبطة له . وفى حالة ذلك الشاب الذى حطمه نجاحه لاحظنا كيف أن صورة عمه اختلطت بصورة رئيسية . وليس التكثيف فى الحلم إلا رده إلى ذلك النوع من التعامل مع الشكل والمضمون تعاملا مزيجا مغريا .

أما الرموز فما أكثرها فى المرض النفسى . فالحصان لذلك الطفل الذى خافة بديل عن الأم ويرمز إلى عنف الكبر وفى جموحه وشدته للاجمال إنما يرمز إلى تلك القوى التى تتصارع

فى نفس الطفل . بل نجد مريضا نفسيا يتحاشى بعض أشكال كالخمسة والخميسة لأنها تذكره بكف الإنسان وبعض الأفعال الدنسة التى يأتى بها الشخص بيده .

ولولا أن المجال لا يسمح بتفصيل أكبر لأبرزنا أن الحلم لغة لها نحوها وصرفها وبيانها وبديعها وبلاغتها . وهذا هو حقا ما يكون عليه الحلم إلا أن لغته لغة فقر فى نحوها ثرية فى بلاغتها ولا شك أن لغة نحوها لا يتضمن أكثر من علاقة الشرط والعلية، بينما ثراؤها البلاغى يفوق كل حصر ، إنما تؤدى إلى تفكير عيانى أشبه بتفكير المريض النفسى . فلغة الحلم لديها من الأشكال عدد لا حصر له بينما لا تحمل إلا مضمونا واحدا هو مضمون الرغبة . لذلك يعد الحلم ذهانا وقتيا يعيشه النائم يباشر فيه تحقيق رغبته فقط بوسائل لا حصر لها وتفوت كل تقدير وتصور .

لذلك نقول أن الحلم تفكير ولكنه تفكير ذهانى . لا نجد فيه مفاهيم عامة وخاصة بل جزئيات متناثرة تتصل بالرغبة المكبوته دون أن تتصل ببعضها . ولفقره فى مضمونه وثرائه فى أشكاله لا يمكن النائم من الانتقال من شكل إلى مضمون فينتج عن ذلك تفكير .

إن الإنسان سليما كان أو مريضا ، فى شعوره أو فى نومه إنما

يفكر . يفكر فى عالمه إذا كان سليما وفى شعوره ، ويفكر فى رغبته إذا مرض أو نام .

التفكير بين العلم والفن

لو تصورنا مناظرة قامت بين مجموعة من العلماء الباحثين وبين مجموعة من الفنانين المبدعين ، فماذا سيدور فى تلك المناظرة ؟ لا شك أن العلماء سيتفاخرون بأنهم قوم يجيدون التفكير ويسيرون فيه حسب أصول معروفة وخطط منسقة فيقودهم إلى ما يكتشفون فى أمان من الشطط ويؤدى بهم إلى أهداف واضحة . وسيتهمون الفنانين بفوضى التفكير وعفوية التأمل والاعتماد على الحدس والإلهام . ويرد الفنانون بأنهم قوم تفتح لهم أسرار الكون أبوابها فى يسر عندما يعالجونها بما لهم من شاعرية وحساسية ورهافة ملكاتهم الفنية ، ويتهمون العلماء بضيق أفقهم وبطء تفكيرهم وقلة حساسيتهم .

ولا شك أن العلماء سيأخذون من مكتشفاتهم ما يكابرون به الفنانون فى إبداعهم . فالفنانون قد اتخذوا من السماء وأجرامها وأقمارها مادة خصبة لصيغ جمالية مبدعة ، ولكنهم لم يكشفوا عن حقيقة ما تغنوا به . كذلك استطاع العلماء الكشف عن

أسرار فى الكون أدهشتنا ولكنهم لم يكشفوا عن أى جمال فيها . بل ربما من هذا النموذج يمكننا أن نكشف عن طبيعة التفكير عند العالم والفنان : العالم يكشف فيجرد ما كشف عنه من الخيال ، والفنان يكشف عن الجمال فيضفى على ما تغنى به غموضاً .

لنقارن التفكير وفى الفن والعلم لنتساءل كيف يصل العالم إلى علمه ؟ وكيف يصل الفنان إلى فنه ؟ وهل يختلفان فى تفكيرهما ؟ وما مصدر الاختلاف إن وجد ؟

يقول العلماء ان تفكيرهم العلمى يسير حسب خطة معروفة تتكون من هذه الخطوات : ملاحظة ـ فروض ـ تجريب ـ إستخلاص . الخطوة الأولى يقوم العلماء فيها بملاحظة لعناصر معينة يضمها ميدان بحثهم . فعالم الطبيعة يلاحظ أن هناك موادا تنكمش وتتمدد ، وأن المواد تختلف فى درجة إنكماشها وتمددها . ثم يلاحظ أن الانكماش والتمدد يرتبطان بدرجة حرارة المادة . فى الخطوة الثانية يضع العالم فروضه ولتكن أن الحرارة تؤدى إلى تمدد المواد ، وأن المعادن أكثر استجابة للحرارة من غيرها من المواد الصلبة . . . وهكذا . وخطوته الثالثة هى التجريب برفع درجة حرارة بعض المواد وقياس

تمددها ومقارنتها فى درجات حرارة مختلفة . . . . وهكذا . وأخيراً يستنتج معادلة تمدد المعادن بالحرارة ويضع قانون التمدد ويطبقه على المواد المختلفة .

من هذا النموذج نرى أن العالم يفكر بطريقة واضحة المعالم . أن العلم يقوم على استقراء الجزئيات كلياتها Induction فالملاحظة تقود إلى إدراك مجموعة من الظواهر غير المتصلة . وتكون الفروض أول محاولة لاكتشاف مفاهيم تعميمة تقود إلى أخرى أكثر تخصيصاً . ويتمكن العالم بالتجريب من أن يصل إلى المفاهيم التخصيصية . وأخيراً يصل إلى اختزال كبير لتلك الجزئيات فى قانون عام يضمن له — ولغيره — سهولة الانتقال بين العام والخاص ، بين الشكل « الخاص » والمضمون «العام» . فالقانون العلمى مجموعة من الرموز التى تدل على أشياء عامة ولكنها تحمل مضامين خاصة يمكن أن تنقل إليها . ولننظر فى قانون عام لتفسير السلوك :

س = ع × د

حيث س هى رمز سلوك « وهو متعدد المضامين » وع هى رمز لعاده « وهى متنوعة أيضاً » و د رمز لدافع « والدوافع كثيرة » .

التفكير العلمى إذا يحقق النظرية النفسية فى عملية التفكير . فالعالم ينشىء المفاهيم ويستخلص منها العام والخاص وينتقل من العام إلى الخاص عن طريق التأكد بالتجارب والمحاولات .

أما الفنان فقلما يتبع تلك الخطوات ليبدع فنه فالفنان أمام مجموعة من القضبان المعدنية التى يجرب عليها العالم ، إنسان لا يفكر ، بل ينفعل . فربما أثاره فيها شكلها وهى مكومة تنتظر اللهب ليسخنها فيشعر نحوها بالشفقة أو يصورها أناساً تنتظر العذاب ، أو يرى فيها جمالا من حيث ألوانها وأحجامها ، ولكنه لن يهتم اطلاقا بمعدلات تمددها وانكماشها . أن العمل الفنى باختصار شديد ، انتقال من الواقع المادى إلى شىء آخر متجاوز لهذا الواقع المادى ، انتقال إلى فهم وإدراك جديد لذلك الواقع . ذلك ما يطلق عليه الفنان كلمة الوحى أو الإلهام أو الحدس .

فى لحظة فجائية وبعملية ذهنية رتيبة ولكنها خارجة عن إرادة الفنان يتجلى له الواقع بصيغة أخرى لها اتصال واهن بالواقع ولها امتداد بعيد فى نفسه ونفس متذوقى فنه .

الإنتاج الفنى إذا لا ينتقل من الواقع بمفاهيمه العامة والخاصة إلى واقع آخر بمفاهيم جديدة . فالماء للفنان يذكره برقة حبيبه ،

والجبل بقوة الزمن ، والطير فى السماء بالحرية والتسامى . ان الهام الفنان لا يقوم على استقراء من الجزئيات إلى الكل بل إلى استنباط Deduction من الكل بصور أجمل .

اذا قارنا العالم بالفنان فى تفكيرهما لوجدناهما على طرفى نقيض فالعالم يجهد نفسه فى تركيب العالم و بنائه والفنان يجهد فى تفكيك العالم وتجزيئه . العالم يسعى إلى قوانين عامة تختصر الكون وتختزله والفنان يميل إلى اكتشاف الكثير فى القليل ومضاعفة معانى الأشياء بدلا من اختصارها . فالعالم يحاول أن يكشف عن العناصر الأساسية للطبيعة و يعددها فى مائة عنصر أو أقل ، والفنان يرى فى كل شجرة جمالا ليس فى جارتها وفى كل زهرة رونقا ليس فى غيرها . العالم يفكر فى عالمه والفنان ينفعل به .

إن مصدر الأختلاف بينهما يتضح لنا بجلاء. لقد قلنا إن الوجدان يعطل التفكير وإن التفكير يوقف الوجدان . فالأختلاف بين العالم والفنان ينبع من تلك العلاقة التى قامت بين فكرنا وانفعالنا. فالعالم يحاول أن يكتشف للظواهر المتعددة قانونا موحدا يفهمها به ويحدها من خلاله . إنه بذلك يكف وجدانه ويعطل انفعاله بالأشياء المتعددة ليتمكن بذلك من أن يفكر فيها بحيده وأن يتخلص من جذب التفاصيل لانتباهه ، فتتكشف له العلاقات

بين الأشياء والصلات بين الأجزاء . أن بحث العالم عن شكل عام ينظم التفاصيل الجزئية والخاصة ، له طبيعته المميزة فاستغلال الأشياء كل بمضمون دون حصولها على شكل واحد لن يتيح للإنسان أن يستفيد منها . وتكون مهمة العالم اكتشاف ذلك ــ الشكل العام حتى يختصر من جهودنا فى التنقيب عن فوائد عالمنا فقانون التمدد يتيح لنا أن نعرف ماذا سيكون عليه الحديد عندما نستعمله فى إنشاء كوبرى فوق نهر . ولو أن العالم أنبهر وانفعل بمادة الحديد واستجاب لذلك المعدن بشاعرية ما أمكنه أن يصل إلى قانون تمدده وانكماشه .

أما الفنان فأنه بحدسه وانفعاله يعطل التفكير ويتجه إلى تحليل الواقع إلى جزئيات لينطبع به ويبحث له عن مضامين . أن طاقته الفنية وتدفق وجداناته يمكنه من أن يضفى على كل جزء من عالمه مضمونا مستقلا يحمل الكثير مما فى نفسه .

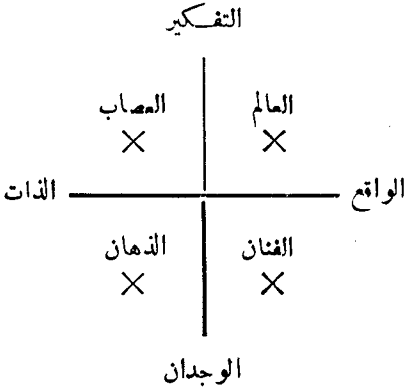
لذلك يتميز العمل الفني بأنه عمل يحمل من شخصية الفنان جانبا كبيرا إذا قورن بما يحمله القانون العلمى من شخصية العالم .

ولا مراء إذا من الخوض فى نقاش حول نقطتين أساسيتين ما هى علاقة تفكير العالم والفنان بالواقع ؟ وما هى الآثار التى تترتب على نمط علاقتهما بالعالم ؟

إن التزام تفكير العالم بالواقع وتعطيله لوجداناته حتى لا يصطبغ العالم بمشاعره يمكنه من أن يصل إلى شكل عام يصل إليه ويتفهمه كل من يعطل وجداناته ويطلق تفكيره. وذلك الأسلوب من الأرتباط بالواقع يجعل القانون العلمى تفكيرا غير خاص بشخص، بل هو تفكير إنسانى عام. فالعالم بقانونه إنما يقدم نموذجا لوحدة التفكير الإنسانى الذى يجعل غيره من الناس يرتبطون بالواقع ارتباطه به.

أما تعطيل الفنان لتفكيره وأطلاق وجداناته فيجعله قادرا على تجاوز العالم ومنح كل شكل مضمونا خاصا. وهو بذلك يخاطب انفعال الناس بذلك العالم ويحثهم على تجاوزه والتنقيب عن انفعالهم به والأرتباط الذى يقوم بين الفنان وعالمه يجعل تفكيره خاصا، أى هو انفعال كما سبق أن أوضحنا. فالفنان بفنه يقدم نموذجا لوحدة وجدان الأنسان الذى يجعل الناس ينفعلون انفعاله بالعالم.

وكى نبرز الأمر للنظر فى شكل يوضح الموقف. لو أن الواقع كان على طرف والذات على طرف آخر، ولو أن التفكير على طرف والوجدان على الطرف الآخر فأين الفنان من العالم؟



العالم أميل إلى التفكير فى العالم والفنان أقرب إلى الأنفعال به ، وذلك فى مقابل الذهانى الأكثر ميلا الانفعال بالذات ، والعصابى الأقرب إلى التفكير فى الذات .

العالم إذا سوى عصابى ، لأنه يقاوم ذاتيته ويتجه إلى الواقع ولكنه يقوم بذلك بتعطيل الذاتية . والفنان عصابى سوى لأنه يقاوم الواقع ويعبر عن ذلك ولكنه يقوم بذلك معبرا عن مشاعر الناس أى معبرا عن الواقع الأنسانى فى مقابل الواقع المادى الذى ينشغل به العالم .

من ذلك نجد أن الآثار التى تترتب على اختلاف طبيعتى تفكير العالم والفنان تصب فى النشاط الأنسانى برمته . أن العالم

بسوائه العصابى يقود الأنسانية إلى استغلال أصلح للعالم ويمكنها من الجمود وعدم الأنفعال به . إنه بذلك يعبر عن ميل الإنسان الى النضج واستعمال التفكير الرمزى لخدمة أغراضه الحيوية . أما الفنان بعصابه السوى فيمكن الأنسان من عدم أغفال ذاته أو ذلك الشق الهام من نفسه الذى كبته ليشعر بفوائد ما يقدمه له العلم . أن الفنان يمثل الوجدان للبشرية والعالم يحقق التفكير لها. وتعاونهما معا ووجودهما سويا يمكننان الأنسان من الإتزان، تماما كما يحدث فى التفكير السوى الذى تنسجم العمليات الذهنية فيه من الوجدانات المناسبةله . فكل إنسان يتضمن الفنان والعالم فى نفسه بنسب متفاوته . فبعضنا أميل إلى العلميه ولكنه لايخلو فى لحظات من أحكام شاعرية . وبعضنا أميلّ إلى الشاعرية ولكنه لا ينفك يفكر كعالم فى أحيان . بل أن التناقض بين رغباتنا « وجداناتنا » وبين عالمنا «تفكيرنا» لاينتهى فى الأنسان لذلك لا بد من لحظات تسود فيها الرغبات فيظهر الفنان فيناثم يختفى ليظهر العالم عندما نفكر فى ماديات حياتنا .

أمعنى هذا أن العالم فنان أيضا ، وأن الفنان عالم ؟ لقد اتحفنا التاريخ بأكثر من فنان عالم وعالم فنان . فاينشين العالم كان من أشد الناس حساسية للموسيقى ، وفرويد الطبيب كان من المهتمين

بالآثار وفنونها . بل آن ليوناردودافنش يحار الناس فى تصنيعه بين العلم والفن . ولكن لو أردنا أن نجيب عن السؤال فيجب أن نلتزم بتعريفنا للعالم والفنان من خلالا معرفتنا بالتفكير .

أن المثل الذى يضرب كثيرا للدلالة على تدخل الألهام فى الكشوف العامية هومثل النفاحة الساقطة أمام نيوتن ، أو مثل ارشميدس فى اكتشافه أسلوب قياس الأحجام . أن أهم المكتشفات العلمية التى هزت الحضارات كانت وليدة الهام وحدس مفاجىء لعالم متمرس ، فكل الملاحظات والفروض والتجارب التى قام بها نيوتن أو أرشميدس لم تكن لتصل بهما إلى كشفهما . فقد توقف التفكير بهما عند حد فلم يتقدما .

ولكنهما أمام ملاحظة بسيطة كسقوط الأجسام من أعلى إلى أسفل أو ارتفاع منسوب الماء عند اغراق جسم صلب به ، هذه الملاحظة التى تكررت عددا لا نهائيا أمام البشر جميعا ، كانت أقيم من الخطة العلمية التى كشفوا بها تفاصيل أخرى .

لذلك يمكن القول بأن العالم المدقق يفكر فى لحظات بأسلوب الفنان الحدس الإلهامى ليتخطى عيوبا كثيرة فى أساليب ملاحظته . بل ان سيجموند فرويد صاحب التحليل النفسى يقول عن كشفه : لقد قيض لى أن أكتشف أكثر الأمور

بداهة . يمكننا بذلك أن نجد الفنان فى كل عالم أصيل ، بل وأن نميز بين عالم عبقرى يسعفه إلهامه وتفكيره الاستنباطى عندما يعجز تفكيره الاستقرائى عن خدمته ، وبين عالم عادى لا يجد فى الإلهام معينا ولا يعينه إلهام أبداً .

كذلك نجد للفنان الملهم عالما فى داخله . فالأديب البارع والمصور المبدع لابد أن يستعينا عند إخراجهما لمليكيتهما الفنية بالأساليب الفنية الدقيقة حتى يجعلا فنهما فى إطار ملائم . فاتقان الأديب للغة وأسرارها ودربة المصور فى فنية خلط اللون واستقلال الأشياء بألوانها ومزيجها ضروري لفنهما .

بين المنطق والإلهام :

تثير هذه القضية نقطة مهمة ، تتعلق بالتفكير الإنسانى . ما دام العالم يفكر تفكير الفنان إذا فشل تفكيره العلمى ، وما دام الفنان بعد أن يصل بحدسه إلى المضمون الوجدانى يعود إلى الصيغ التخطيطية من التفكير ، ما دام ذلك يحدث لكليهما فلابد وأن يكون التفكير الإنسانى مزيجا من حدس ومنطق ، من إلهام وتأمل . فالعالم فى الواقع مزيج من غموض ووضوح . أما الغموض فقد يتضح بالإلهام والوضوح يلتئم بالمنطق . لذلك

نجد أن التفكير الإنسانى طيع مرن به من الإمكانيات ما يكفل له أن يعالج الواضح والغامض معا . فالإنسان فى تفكيره الرمزى يحلل الكل إلى جزئياته ويجمع الجزئيات فى كل . إنه بذلك ينتقل من الشكل إلى المضمون ويعود من المضمون إلى الشكل تماما كما ينتقل الفنان إلى العلم والعالم إلى الفن .

وإذا أردنا أن نجمع ما وصلنا إليه فى دراستنا لوجدنا أننا فى سوائنا وفى مرضنا ، فى علمنا وفى فننا ، فى وعينا وفى نومنا إنما نمارس الانتقال من الشكل إلى المضمون وبالعكس . فقد وجدنا أن الإنسان فى تطوره يكبت جانبا من رغباته اذ ينتزع منها شكلها ويتركها مضمونا وجدانيا لا شعورياً . وتعاوده تلك الوجدانات فتتسرب إلى أحكامه على الأمور وتؤثر فى تفكيره . ولكنه قادر على استغلال هذا اللاشعور فى خلق فنى يسهم به فى امتاع الآخرين وجدانيا ، وقادر أيضاً على أن يشحن شعوره بتلك الطاقة المكبوتة والمحركة للعالم أن يكتشف ويخترع .

إن امتزاج النفس الإنسانية من الشعور واللاشعور هو الذى يخلق العالم والفنان . فالعالم خاضع للتفكير الشعورى الذى يبدو خالياً من الوجدان وان كانت شخصية وجدانية انفعالية مضبوطة

وتحت سيطرة الفكر . والفنان خاضع للاشعور الذى يبدو خاليا من الفكر والمنطق وإن كان إطاره الفكر والعلم الذى يتبع اللاشعور . إن الفكر والتفكير عندما يسيطران على اللاشعور ويستغلانه يخلقان العلم ، أما إذا اتبع الفكر والتفكير لا شعور الشخص فإن الفن يكون النتاج .

ولا شك أننا بكشفنا للفنان فى كل عالم وللعالم فى كل فنان إنما نكرر حقيقة أخرى وصلنا إليها وهى وجود لا شعور فى كل شعور ونبوع الشعور من لا شعور . وتفيدنا تلك العلاقة التى نجدها بين الحدس والتفكير . أن تفكير العالم يقربه من مشاكل غامضة تبدو بعض عناصرها قريبة منه ولكن تفكيره يعجز عن إدراكها . فى هذه اللحظة ينشط حدسه ولا شعوره ليعينه على ذلك الفهم .

بذلك يكون التفكير خطوات تقربه من لحظة الإلهام التى تكشف له فجأة عما غمض . كذلك الفنان فى حدسه وإلهامه أنما يؤجل التفكير حتى تتجلى له الطبيعة فجأة فى صيغة جديدة فيشرع فى التفكير فيها بأسلوبه الفنى .

أن التفكير المنطقى خطوات تقربنا من إلهام وحدس بالأمور وكذلك الحدس والإلهام يعدان تفكيرا مضمرا ، تفكيرا خافتا

سرعان ما يشتد عوده ليدين الفنان على خلقه وابتكاره .

التفكير الأنسانى ساساته من الفهم المباشر والفهم المنظم التمهيدى وكل إنسان يمتزج فيه التفكير بالإلهام فى نسب متفاوته . وكلما كان ذلك المزيج مصحوبا بالوجدان الإنسانى زادت النزعة الفنية وكلما قل ذلك العنصر فيه وزاد عنصر الواقعية تحول إلى علم . وكلما انسجم المزيج الفكرى والوجدانى ، كلما اقترب الإنسان من السواء ومن الخالق .

المكتبة الثقافية
تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

١	— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية ...	للأستاذ على أدهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور بول غليونجى
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
١١	— المريخ	للدكتور جمال الدين الفندى والدكتور محمود خيرى
١٢	— فن الشعر	الدكتور محمد مندور
١٣	— الاقتصاد السياسى	للأستاذ احمد محمد عبد الخالق

١٤ — الصحافة المصرية ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزة
١٥ — التخطيط القومى ... ... للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... ... للدكتور ثروت عكاشة
١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى
١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى
١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر ... للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد أحمد بدوى
٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصر ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — أعلام الصحابة « المجاهدون » للأستاذ محمد خالد
٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر

٥٨ — بلاد النوبة .. ... . للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٥٩ — غزو الفضاء ... . للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٦٠ — الشعر الشعبي العربي ... .. للدكتور حسين نصار
٦١ — التصوير الاسلامى ومدارسه للدكتور جمال محمد محرز
٦٢ — الميكروبات والحياة .. ... للدكتور عبد المحسن صالح
٦٣ — عالم الأفلاك ... ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٦٥ — الثورة الاشتراكية « قضايا ومناقشات » للأستاذ أحمد بهاء الدين
٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى
٦٧ — عالم الطير فى مصر ... .. للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
٦٨ — قصة كوكب ... . للدكتور محمد يوسف موسى
٦٩ — الفلسفة الإسلامية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٧٠ — القاهرة القديمة وأحياؤها .. للدكتورة سعاد ماهر
٧١ — الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء للأستاذ محرم كمال
٧٢ — قرطبة فى التاريخ الإسلامى للأستاذ محمد محمد صبح والدكتور جودة هلال
٧٣ — الوطن فى الأدب العربى ... للأستاذ إبراهيم الابيارى
٧٤ — فلسفة الجمال ... . للدكتورة أميرة حلمى مطر
٧٥ — البحر الأحمر والاستعمار .. للدكتور جلال يحيي
٧٦ — دورات الحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح
٧٧ — الإسلام والمسلمون فى القارة الأمريكية للدكتور محمد يوسف الشواربى

١٢١ — التاريخ والسير ... ... للدكتور حسين فوزى
١٢٢ — تطور المجتمع الدولى ... ... للدكتور يحي الجمل
١٢٣ — الاستعمار والتحرير فى العالم العربى للدكتور جمال حمدان
١٢٤ — الآثار المصرية فى الأدب العربى للدكتور أحمد أحمد بدوى
١٢٥ — الاسلام والطب ... ... للأستاذ محمد عبد الحميد البوشى
١٢٦ — الحلى فى التاريخ والفن ... للدكتور عبد الرحمن زكى
١٢٧ — نافذة على الكون ... ... للدكتور إمام إبراهيم احمد
١٢٨ — الفلاح فى الأدب العربى ... للأستاذ محمد عبدالغنى حسن
١٢٩ — ثروتنا المائية ... ... للدكتور أنور عبد العليم
١٣٠ — التفكير عند الإنسان ... للدكتور أحمد فائق

الثمن قرشان

مطابع دار القلم